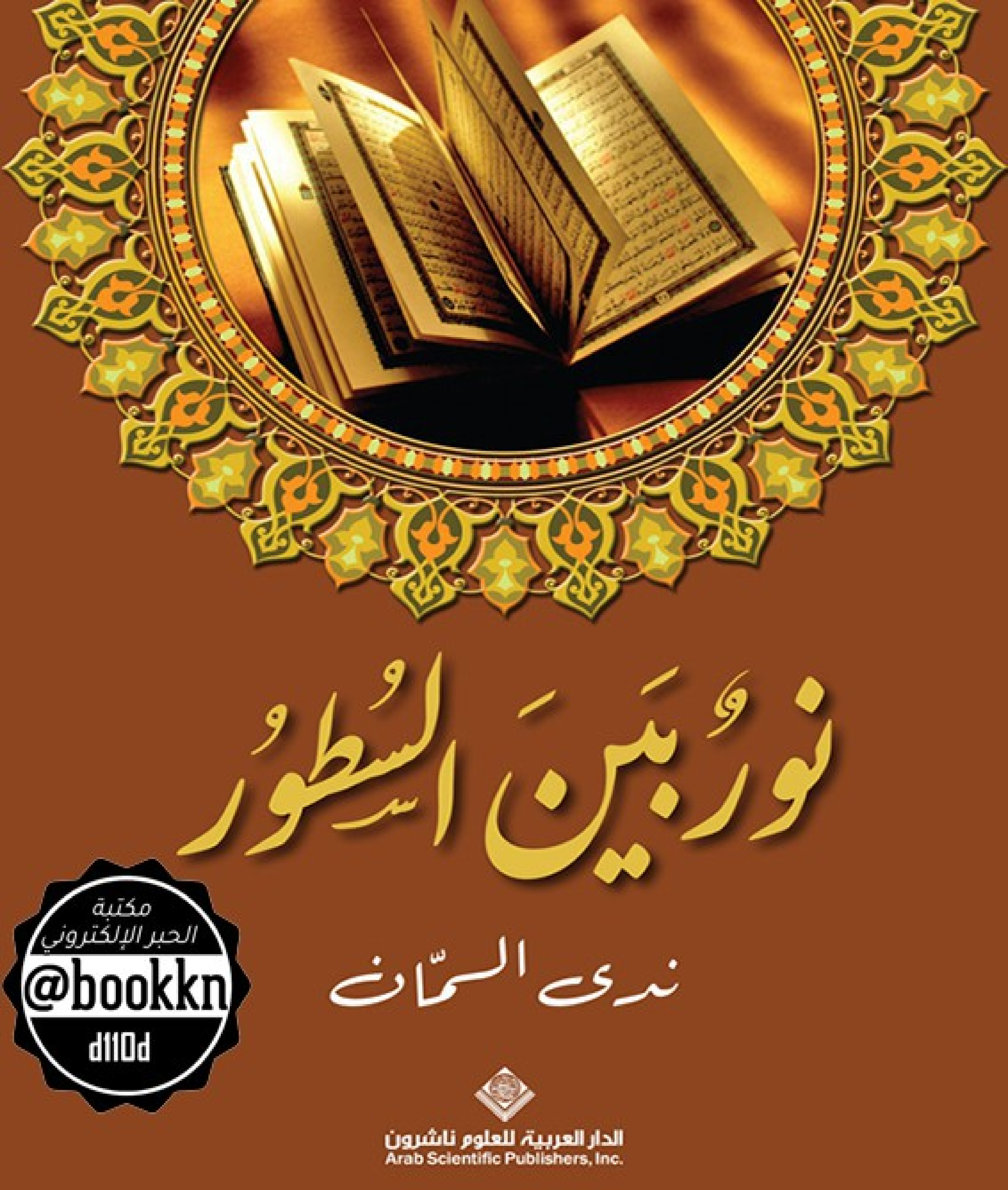

نور بين السطور
ندى السمّان
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

نور بين السطور

نورٌ بَينَ السُّطورِ

ندى السمان



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
2016 م – 1437 هـ

ردمك 9786140228320



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

المقدمة

يعد هذا الكتاب بقعة ضوء تجول بين آيات القرآن الكريم لتضيء لنا بنورها بعض المعاني التي كانت غائبة أو مغيّبة عن حياتنا، ثم تسقط معانيها على حياتنا فترتبط بها وتجعلنا نشعر إلى أي مدى تشبهنا وتنتمي لما نعيشه، وكأنها تتحدث عن حياتنا في هذا الزمان، فنرتبط بها أكثر ونحبها أكثر.

فكثير منا يتعاملون مع القرآن الكريم الذي هو أعظم كتاب عرفته البشرية وكأنه أحد الكتب القديمة التي لا ترتبط بحياتنا بل ترتبط فقط بمعتقداتنا وديننا.. في حين أنه كتاب رائع يحمل في طياته أروع وأرقى الأخلاق والقوانين والمعجزات والقصص الهادفة والغيبيات والحقائق العلمية، فهو بحد ذاته معجزة موجودة بين أيدينا بعد أربعة عشر قرناً من الزمان بحرفيته التي نزل بها.

وأنا أدعو، من خلال هذه الإضاءات على بعض آيات القرآن الكريم، كل من قرأ أو حفظ القرآن، دون الرجوع إلى معاني آياته وأسباب نزولها، إلى الخوض في غمارها ومحاولة تلمس معانيها الرائعة، لأننا جميعاً مطالبون بالعمل بما جاء في هذا الكتاب التشريعي العظيم الذي يتناول كل جوانب حياتنا بأسلوب لا متناهٍ من الأدب. فكيف سنعمل بما يربينا عليه إن لم نفهم معاني آياته ويتضح لنا جوهره.

من هنا أصبح فهمنا لما جاء في القرآن الكريم واجباً على كل مسلم، سواء الحافظ لكتاب الله أو غير الحافظ له، خصوصاً مع تغير المفردات في زماننا وعدم وضوح معانيها لنا. وإن لم نفعل سيصيبنا الجهل، ويصبح ترديدنا لآياته لا يتجاوز آذاننا، ولن يغير فينا شيئاً، ولن يهذب أخلاقنا ويطهر روحنا كما يجب، لأننا نقرأه ولا نفهم إلا ما تيسر لنا فهمه. وقد يكون هذا الفهم السريع مغايراً لجوهر المعنى الحقيقي للآية خصوصاً مع تشابه الآيات واختلاف أسباب النزول، فقد نجد

آيتين متشابهتين بحرفيتهما لكنهما مختلفتان بالمعنى حسب مكان وزمان النزول والحادثة المرافقة لنزولهما فتختلفان بالمعنى والمغزى.

وفي كثير من الأحيان قد نقرأ الآية من القرآن ويلامس فكرنا معنى لها، لكن عند قراءة التفسير ومعرفة التفاصيل عنها نكتشف أنها أصبحت تحمل معنى آخر مختلفاً تماماً عما راودنا من معنى.

ولما كانت هذه التفاصيل المختبئة في طيات هذه الآيات توضح لنا كثيراً من المعاني التي تساعدنا في فهم الدروس والعبر المستخلصة من كل قصة أو موقف، فمعرفتنا بها تساعدنا على تهذيب أنفسنا بما ورد فيها من مكارم الأخلاق وتعلمنا كيف نحسن التعامل مع مشاكلنا وتسهل علينا فهم حقوقنا وواجباتنا تجاه أنفسنا، وتجاه من حولنا، وتجاه أقربائنا وأولياء أمورنا، وتجاه خالقنا. لذلك كان لزاماً فهم أعمق لهذه الآيات وتفاصيلها بشكل مختصر وبسيط.

ولما كانت هذه الآيات تحمل بين حروفها وكلماتها ومعانيها روح الإسلام وجوهره الذي بات في زماننا مغيّباً ومشوّهاً بأيدي الجهلاء أو بأيدي بعض العلماء ممن جعلوا ولاءهم لغير الله ودينه، فزرعوا الشك والريبة في قلوب العامة بسبب خلافات واختلافات شوّهت الصورة في عيون الناس عن الإسلام، أو آخرين ممن حرّفوا بعض مفاهيم الإسلام، فأصبحوا يقتلون باسمه، وينهبون باسمه فشوّهوه وجعلوا منه ديناً مكروهاً ومنفراً، وهو بريء منهم ومن أفعالهم، لكل ذلك كان من الضروري شرح بعض الحقائق لتنقية عقول الناس من هذه الشوائب المستحدثة بقصد تشويه الإسلام وإعادة رسم صورة صادقة وحقيقية عنه مبنية على كلام الله وتفسيره.

أتمنى أن يحمل كتابي المتواضع انعكاساً صادقاً لجوهر الإسلام ولبعض آيات القرآن الكريم الرائعة التي استوقفتني كثيراً وجعلتني روعة معانيها أكتب عنها، وفي كل منها استعنت، بعد ربي، بتفسير ابن كثير لأنه كثيراً ما حملني إلى الزمان والمكان نفسيهما حيث جرت الأحداث، فأبكاني مرة وأدهشني مرة وحمل إليّ الفرح والتفاؤل والأمل مرات ومرات. وكثيراً ما لفتتني الخشية في كثير من المواقف التي شعرت فيها بعظمة الله عَزّ وَجلّ وبالقرب منه، فوقفت في حضرة كلام الله خاشعة يسحرني ذاك الكمال الفريد لله عَز وجَلّ وكلامه.. وتسحرني تفاصيل يعرفها عنا تجاوزت ما نعرفه نحن عن أنفسنا.

وأعترف أن اللحظات التي قضيتها برفقة القرآن كلام الله (تبارك وتعالى) وآياته وتفسيره كانت من أجمل ما عشت في حياتي.

أتمنى أن تلمس تجربتي الرائعة، التي أدعوكم لمشاركتي بعض لحظاتها في هذا الكتاب، قلوبكم وتحرك ضمائركم وتحاكي عقولكم وتوقد في قلوبكم الرغبة في تعلم مزيد من التفسير ليزيد حبكم وفهمكم لكلام الله عَزّ وَجلّ ولدينه ولنبيه الكريم، وتلقي الضوء على الإسلام الحقيقي، فتشجعكم على المضي في تلمس معاني آياته بأكثر من معاني بعض المفردات، بل أن تتعمقوا أكثر في فهم أسباب نزول الآيات وما جاء في السنّة النبوية من تفسير على لسان نبينا الكريم أفضل الصلاة والسلام عليه، أو الصحابة ممن أكرمهم الله بالبصيرة الفذّة في التفسير كابن عباس رضي اللّه عنْه.

راجية من الله، الذي وفقني للتعرف إلى كتابه وفهم القليل فقط من كلامه بفضله وجوده وكرمه لي، ولكم الأجر والثواب والفائدة.

ندى السَّمّان

كيف يحاربون الإسلام؟

لم يكن مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، هو المدلول الباهت الفارغ الهزيل الذي يعنيه اليوم من يزعمون أنهم مسلمون، لمجرد أنهم يشهدون هذه الشهادة بألسنتهم، ويؤدون بعض الشعائر التعبدية، بينما ألوهية الله في الأرض وفي حياة الناس لا وجود لها ولا ظل؛ حيث يحكم المجتمع ويصرف شؤونه بعض من القيادات والشرائع الجاهلية. فقد تعرض القرآن الكريم لمحاولات عديدة لإبعاد الناس عنه ومنها محاولة النضر بن الحارث أن يلهي الناس عن هذا القرآن بشيء آخر يصرفهم به عنه، ولم تكن هذه المحاولة الأخيرة ولن تكون، فقد تكررت في صور شتّى، حيث حاول أعداء هذا الدين دائماً أن يصرفوا الناس نهائياً عن هذا القرآن. ولما عجزوا حولوه إلى تراتيل يترنم بها القراء ويطرب لها المستمعون، وحولوه إلى تمائم وتعاويذ يضعها الناس في جيوبهم وعلى صدورهم وتحت وسائدهم.. ويفهمون أنهم مسلمون، ويظنون أنهم أدوا حق هذا القرآن وحق هذا الدين!

لم يعد القرآن في حياة الناس مصدر التوجيه، بل أصبحوا يعتقدون أنه لم يعد صالحاً ليعيشوا في ظل شرائعه. فقد صاغ لهم أعداء هذا الدين أبدالاً منه يتلقون منها التوجيه في شؤون الحياة كلها حتى يتلقوا منها تصوراتهم ومفاهيمهم، إلى جانب ما يتلقون منها من شرائع وقوانين وقيم، حتى تغيرت موازينهم! ثم قالوا لهم: إن هذا الدين محترم، وإن هذا القرآن مصون وهو يتلى عليكم صباحاً ومساءً وفي كل حين؛ ويترنم به المترنمون، ويرتله المرتلون، فماذا تريدون من القرآن بعد هذا الترنم وهذا الترتيل؟!

فأما تصوراتكم ومفهوماتكم، أنظمتكم وأوضاعكم، شرائعكم وقوانينكم، قيمكم وموازينكم، فإننا نبثها في حياتكم في برامج سخيفة تشد ملايين المسلمين لمتابعتها والتفاعل معها. ونطرح في

مسلسلاتكم ومن خلال ممثليكم المفضلين آراءنا الملوثة والمرفوضة من كل الأديان، مثل تقبل المثليين كأشخاص عاديين وعدم رفضهم أو معاقبتهم. وهكذا نصنع لكم مرجعاً آخر لتصرفاتكم ومبادئكم وأخلاقكم وأحلامكم، مرجعاً مسموماً بكل ما فيه، فإليه ترجعون.

ومن خلال الإنترنت والفضائيات يبثون للمسلمين شرائع مشوهة، ومفاهيم مغلوطة، وقيماً جوفاء، وموضة جديدة كل عام يتبعونها ويعيدونها عليهم صباح مساء على شاشات التلفاز والإنترنت ويشغلون أوقاتهم وعقولهم ببرامج تافهة ومسابقات يتسابق أصحابها إلى جحيم الشهرة ثم تسوقهم بدورها إلى طريق جهنم.. على خطوات شياطين الإنس والجن. ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يربطون الإسلام بالقتل والإرهاب، فأطلقوا اسم الدين على كل مجموعات القتلة وألبسوهم ثوبه كي يكرهه حتى المسلمون ويظنون أن الإسلام ما هو إلا قتل وترهيب وتكفير وهو أبعد ما يكون عن ذلك.

ثم بدأوا يزرعون في عقول المسلمين العلمانية ومفاهيم فصل الدين عن الدولة، وأن الدين للفرد، والوطن للجميع عندما يكون بعيداً عن الدين، واخترعوا أكاذيب كثيرة ليوهموا الناس بأن هذا الدين يجب أن ينفصل عن حياتنا وأن يبقى مسجوناً على سجادة الصلاة وفي داخل المصاحف فقط وكأنه دين فاشل لا يصلح إلا ليكون مبرراً لتخلف المسلمين الآن. مع أن العيب ليس في هذا الدين المسالم والعادل والمنفتح على جميع الأديان، ولا عيب في هذا القرآن العظيم، لكن العيب في الوحوش المتنكرين بهيئة بشر، والعقول القاصرة التي تعيش في هذا الزمان، والمسلمين الجهلة الذين لم يعد لهم علاقة بالإسلام ومعناه وحقيقته، فبجهلهم شوهوه وضيعوه فضيعهم الله. ويخطئ كثيراً من يظن بأنه سينال العزة والراحة والأمان إن عزل الإسلام عن تفكيره وحياته ودولته وسياسته، بل على العكس فلن يعرف العزة والأمان في شريعة أخرى صنعها البشر لأنها لن تبلغ كمال شريعة وضعها رب البشر، وعاش في ظلها الناس من كل الملل والأديان بسلام طيلة أربعة عشر قرناً من الزمان.

{الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء: 139].

{... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [المنافقون: 8].

أما ما يحدث الآن من حروب وإجرام فليس بسبب الإسلام وإنما بسبب الابتعاد عنه إلى درجة الجهل بأحكامه ومعناه ومغزاه وجوهره وروحه، والاكتفاء من القرآن، الذي هو مصدر التشريع الأول، بالترديد والحفظ الحرفي دون التمعن في آياته وفهمها بشكل صحيح – وليس على شكل شرح للمفردات فقط – ولكن العجيب في شأن هذا القرآن، أنه – برغم الكيد وتعقده وتطوره وترقيه – ما زال يغلب! ربما لأنه معجزة الله على الأرض أو لأن الله تعهد بحفظه **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}** [الحجر: 9].

فما لهذا الكتاب العظيم من خصائص عجيبة، وسلطان قاهر على الفطرة، ما يغلب به كيد الجاهلين في الأرض كلها في كل زمان ومكان، وكيد الشياطين من اليهود والصليبيين وعَبَدَة الشيطان، وكيد الأجهزة العالمية التي تهدف إلى تشويه هذا الدين في كل أرض وفي كل زمان!

إن هذا الكتاب لا يزال يلوي أعناق أعدائه في الأرض كلها، ولذلك جعلوه مادة إذاعية في جميع محطات العالم، بحيث يذيعه – على السواء – اليهود والصليبيون وعملاؤهما! والحقيقة أنهم يذيعونه بعد أن نجحوا في تحويله في نفوس الناس «المسلمين» إلى مجرد أنغام وتراتيل، أو مجرد تمائم وتعاويذ! وبعد أن أبعدوه – حتى في خاطر الناس والمسلمين – عن كونه مصدر التشريع والتوجيه للحياة؛ وأقاموا مصادر غيره للتوجيه في جميع الشؤون. ولكن هذا الكتاب ما زال يعمل من وراء هذا الكيد؛ وسيظل يعمل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فهو التشريع الوحيد من بعد كتاب موسى وتشريعاته المتشدّدة، باعتبار أن الإنجيل هو مجموعة عظات ونصائح تتضمن الكثير من التشريعات. أما القرآن الذي ألغى ما قبله ودمج هذه الكتب السماوية والتشريعات بحيث تضمن التشريعات الوسطية والقيم والآداب التي تتناسب مع كل زمان ومكان، فما زال صامداً في قلوب القلة القليلة التي تؤمن به وبقدرته على بسط عدله على الجميع.

{قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأحقاف: 30].

ولا تزال في أنحاء الأرض فئات مسلمة تتجمّع على جدية هذا الكتاب، وتتّخذه وحده مصدر التوجيه.

كيف نخسر أصدقاءنا؟

إذا حدث خلاف ما مع صديق قريب أو بعيد تطرق مسامعنا أصوات تُحدثنا بآلاف الخواطر السيئة والأفكار البشعة التي كان يقصدها بكلامه.

ولكن الحقيقة أن كل هذه الأفكار ليست سوى وساوس من الشيطان، وأكاذيب يُطلقها ليغشنا بها أكثر، ويوقع الفرقة بيننا، فيبثها بخبث في صدورنا ويقصها بمكر على أسماعنا، فيتحدث إلينا بصوت يشبه صوتنا كي نظن أننا نتكلم مع أنفسنا فنصدّقه.. دون أن نشك ولو للحظة بأن من يحدثنا هو الشيطان وليس حديث أنفسنا. لكن ما الذي يحمينا منه؟

إنه إيماننا الذي يتصدّى لوساوسه، فالشيطان يتغذّى على الخصام والخلاف حيث يخلقان معاً بيئة مناسبة له ليعيش بيننا.

فإن كان الإنسان ذا إيمان صادق، كبح غضبه وذكر ربه وتعوّذ بالله من الشيطان، فيبعده الله عنه ويحميه من وساوسه التي تطوف في عقله ونفسه كطيور سود تحمل أفكاراً أشد سواداً.

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: 201].

{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: 200].

وبعد أن تزول سوْرة الغضب وبعد التعوّذ نشعر أن الرؤية أصبحت أوضح، فيظهر الخطأ من الصواب، وتتضح لنا الحقيقة وكيف حصل الخلاف، ويتضح لنا إن كان الحق معنا أم علينا، أو إن كنا نحن سبب الخصام. وهنا تقف تقوى الله بيننا وبين أذية من آذانا أو الرد عليه بغير ما

أمر به الله في القول والفعل. الله يصف المؤمنين بأنهم يغفرون ثم يترك الخيار لنا بالعفو فهل تقبل نفوسنا الغفران؟ {... **وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}** [الشورى: 37].

ولكن هذا لا يعني أن الشيطان يئس وابتعد، فعندما نبعده بذكر الله، يُرسل مندوباً عنه، شيطاناً من الإنس يوسوس لك لتتذكّر المشكلة، ويُعظّمها في عقلك ويقول لك: كيف تسمح له أن يقول لك هذا؟ هذا الإنسان فاسد ونيته خبيثة ومعاملته سيئة، فيجب أن ترد عليه وتلقّنه درساً. وقد يدفعك دفعاً كي ترد له الصاع صاعين.. **{وَإِخوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ}** [الأعراف: 202].

وتفسير هذه الآية رائع فهي تشرح كيف تساعد شياطين الإنس الذين هم إخوان شياطين الجن في تضليلنا دون تباطؤ أو تقصير. وهذه الشياطين هي الأكثر خبثاً لأننا لا نستطيع صرفها عنا بالتعوّذ وليس لنا سوى تذكّر الله وتقواه واتباع أوامره بالتماس العذر لمن أخطأ معنا، فلربما كنا نحن البادئين بالخطأ! وليس هناك أفضل من قول كلمة طيبة لمن أخطأ بحقنا تطيب بها النفس، فهي تدفع الوساوس وتُسكت شياطين الإنس والجن بإذن الله.

{وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً} [الإسراء: 53].

أعرف كم هو سهل أن نقول ما يجب فعله، ولكن الصعب بل الأكثر صعوبة تطبيق ما نعرف وما نقول، فمن كان في نفسه إيمان لا بد أن يُحاسب نفسه ويلومها قبل أن يلوم من أساء إليه. هذا خُلق الإسلام ولكن أين نحن منه؟

أعاننا الله على ذكره في لحظات غضبنا أو حتى بعدها، وأعاننا على شياطين الجن والإنس التي توسوس في صدورنا وعقولنا وتبث الفرقة والكره بيننا.

{وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: 34].

لقد علّمنا ديننا كيف نتعامل مع المشاكل التي قد تواجهنا، وعلّمنا أن نرد على الإساءة بالإحسان، ولكننا لم نعد نطبق ما علّمنا إياه أو لم نعد نستطيع. تخذلنا أنفسنا الأمّارة بالسوء وتقول:

لا أستطيع أن أسامح وأعفو. ونحن نتقبل منها هذا الردّ ولا نحاول تهذيبها بالأخلاق الطيبة، لذلك تجد كثيراً من أفراد الأسرة الواحدة مختلفين، وبينهم مشاكل كبيرة، لأسباب تعود إلى سوء التعامل وسوء الظن والانصياع لوساوس شياطين الإنس والجن، أعاذنا الله منهم.

من صاحب الحق؟

عندما يتمادى الإنسان في الخطأ، ويبقى مُصرّاً عليه، مُتشبثاً بآرائه التي هي مصدر تصرفاته الخاطئة والتي لطالما جرحت من حوله وظلمت من أحبوه وجرته إلى أخطاء فادحة في حقهم، عندها لا يترك لهم مجالاً للصفح عنه أو التماس العذر له. وكذلك نحن في أخطائنا مع الله عَزّ وَجلّ، إن أصررنا عليها ولم نتراجع ونعترف بأننا كنا مُخطئين، فإننا نفوّت على أنفسنا الفرصة الأخيرة للعفو والغفران من الرحمن.

{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 135].

ولكن إنْ أخطأنا بحق شخص ما ولم يُسامحنا هذا الشخص فهل يسقط الذنب عنا بالاستغفار؟ وهل يحق لنا أن نظلم الناس ثم نستغفر الله؟ بالطبع لا. فعندما نُخطئ مع الله ونُقصّر في واجب علينا تجاهه يكون هو صاحب الحق، فاستغفارنا لله يكفي للمغفرة. وقد يعفو فيمسح هذا الذنب من صحيفتنا كرماً منه.

ولكن عندما نُخطئ مع إنسان ليس بذي شأن، عامل مثلاً، فهنا تكمن المُشكلة.. فإن استغفرنا الله لا يغفر الله لنا هذا الذنب إلا إن سامحنا صاحب الحق، وهو ذلك الإنسان الضعيف الذي ظلمناه أو آذيناه بكلمة أو بتصرف جرح مشاعره أو كسر قلبه.

جاء في الحديث الشريف عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «الظلم ثلاثة فظلم لا يغفره الله وظلم يغفره الله وظلم لا يترك الله منه شيئاً؛ فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك بالله وقال: {... **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** [لقمان: 13] وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم

وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعضهم من بعض» رُوي مرفوعاً وموقوفاً.

لذلك فلنحرصْ على تصرفاتنا، ولنربطْ ألسنتنا بحبل من مخافة الله عَزّ وَجلّ حتى لا نقف يوم القيامة بين يدي الله وأمامنا هؤلاء الأشخاص الضعفاء الذين آذيناهم بلساننا أو بأيدينا أو بتصرفاتنا، نعتذر لهم ونتوسل إليهم العفو والغفران.

آية ومعنى في الإنفاق

{وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: 22].

هذه الآية الكريمة تتحدث عن الحلف، أي لا يحلف أصحاب العطاء الصدقات أن لا يصلوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين حتى ولو أساء هؤلاء المساكين التصرف، كما حدث في حادثة الإفك، حيث أساء أحد الفقراء من أولي القربى وهو مسطح بن أثالة، وهو ممن كان أبو بكر رضي الله عنْه ينفق عليهم، فأساء الظن بالسيدة عائشة عندما تأخرت عن قافلة الرسول ﷺ فتحدثوا عنها بما يمس طهارتها وشرفها. فحلف أبو بكر أن يتوقف عن دفع النفقات والمساعدات لهؤلاء عقاباً على تطاولهم على أم المؤمنين والمساس بشرفها وبعد أن برأها الله عز وَ جلّ. هنا نزلت هذه الآية الكريمة ليعلمنا الله عز وَ جلّ كيف تكون أخلاق الإسلام والمسلمين.. وفيها لم ينهر الله عز وَ جلّ أبا بكر ولم يعب عليه قطع الإنفاق عليهم، ولكنه تحدث بغاية الرفق والتفهم للموقف، ثم طرح عليه الخيار بإعادة الإنفاق وعرض عليه أجر ذلك بكل الود فقال: {... **أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ...}** [النور: 22].

وهذا في غاية الترفق والعطف على ذوي الأرحام الذين تقدم منهم الإساءة أو الأذى كي يعلمنا الله تبارك وتعالى، من حلمه وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم، ألا نعاقب أولئك المساكين ونقطع مساعدتنا لهم وتصدّقنا عليهم بسبب خطأ ارتكبوه بحقنا أو بحق غيرنا من الناس. ومن كمال إكرام الله للصديق أنه لم يأمره بذلك ولكن بينه وترك له، ولنا من بعده، حرية الاختيار بين أن نفعل ما أمرنا الله به ونؤجر عليه، أم لا نفعل ونضّيع الثواب. وهذا سيكون بالنسبة إلى الضعفاء المسيئين زيادة في الفضل، مما قد يشعرهم بالندم على ما فعلوه من إساءة، ودرساً لهم

ولغيرهم يعلمهم فيه الله أن أخلاق الإسلام وإنسانية البشر أعظم وأرقى من سواد نفوسهم.. والثواب الذي نحصل عليه لقاء تخلّقنا بهذا الخلق الإنساني الرائع هو **{... أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ...}** [النور: 22] نحن نسامح الناس كما نحب من الله أن يسامحنا وذلك كي نتخلّق بأخلاقه الكريمة عَزّ وَجلّ ونتصدّق ولو على إنسان آذانا أو أساء إلينا، وهذا قمة الإحسان. والأخلاق التي يُعلمنا الله تعالى أن نتخلق بها أكثر روعة فهي التي تجعل من المسلمين أفضل الأمم بأخلاقهم. فلنتعلمْ من الله عَزّ وَجلّ فالله تبارك وتعالى يرزق عباده ويعافيهم مع ظلمهم له وكفرهم به. هكذا يجب أن تكون أخلاق المسلمين، لا أن نعطي ونمن ثم نقطع العطاء كعقاب. لنترك العقاب لله ولنكن جميعاً عباداً له. وهكذا كلما قرأت أكثر ازددتُ شغفاً وحباً لهذا الرب الكريم وكلامه العظيم والخلق الكريم الذي يعلمنا إياه في هذا القرآن العظيم.

المخاصمة والاحتكام إلى الله

إلى كل من تخاصم مع إنسان، راجع نفسك، هل ظلمته أم ظلمك؟ كُنْ على يقين من أن ما حدث من الخصومة بينكما سيعاد أمام الله، وسيحاسبكما الله، وسيزن رب العباد العادل بميزان الحق. وعندها لن تستطيع أن تنكر ما فعلت، ولن تقدر على نكران الظلم الذي ظلمته، ولن تجد من يساندك على خطئك ويزوّر الحقائق من أجلك، ويتستّر عليك. فهناك لا يوجد سوى الحق، وستشهد عليك جوارحك وتقول الحقيقة التي تخفيها أنت **{الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [يس: 65].

{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء: 108] عندها سيهترئ لحم وجهك خجلاً من ربك على ما بدر منك. فلا تحاول أن تلجأ إلى من يدافع عنك في الدنيا لأنك يوم القيامة لن تجد إلا الله أمامك، وستعيد الحق إلى صاحبه من حسناتك ثم ستأخذ من ذنوبه، وسيقتص الله منك، فاحذر أن تظلم أحداً.

جاء التحذير واضحاً في القرآن الكريم، ولكن من سرعة قراءتنا له لم نفهم المعاني ولم نتصور الموقف العظيم ولم نعلم ما جاء من الأحاديث فيه.

قال الإمام أحمد عن الزبير بن العوام: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ {**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**} [الزمر: 30–31]. قال الزبير: أي رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم ليكررن عليكم، حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد. رواه الترمذي. وقال الإمام أحمد:

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليختصم، حتى الشاتان فيما انتطحتا» تفرّد به أحمد.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا ثابت عن أنس رضي اللَّه عنْه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاءِ بالإمام الخائن يوم القيامة، فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه، فيُقال له: سد ركناً من أركان جهنم».

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي لله عْنهما، بشأن الآية: **{ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}** [الزمر: 31]:

يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدي الضال، والضعيف المستكبر. فإن كذبت وإن ظلمت وإن استكبرت وإن أسأت، حاسب نفسك قبل أن يحاسبك الله واستسمح ممن أخطأت بحقه. وإن ظلمك أحد أو سلبك حقاً من حقوقك أو أهانك ولم تستطع أن ترد عليه أو ترفعت عن الرد عليه، أبشر ستأخذ حقك منه أمام الخلق أجمعين يوم الحساب وسيعيد ربك إليك حقك في موقف عظيم، نعم سيعود لك حقك بإذن الله **{وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}** [الروم: 6].

قصص تسيء إلى عدل الله

كثيرة هي القصص التي يتناولها الناس، خاصة على مواقع التواصل الاجتماعي، والتي تتحدث عن عقاب الله لبعض الأشخاص بعد وفاتهم مباشرة. ولا أحد يعلم مدى صحة هذه القصص؟

ومثال ذلك قصة عن فتاة صالحة مصلِّية، لكنها كانت تلبس لباساً مكشوفاً في الحفلات، احترق جلدها بعد موتها مباشرة قبل أن تُغسل أو تُدفن! ولكن السيئ في الموضوع أن مثل هذه القصص تؤدي إلى تشويه الصورة في النفس عن الله عَزّ وَجلّ، وتؤثر سلباً علينا، وخاصةً على فتياتنا، لأنها تركز على الخوف من الله بدل محبته، وتزعزع الثقة بعدله وعفوه، خاصة وأن الذنب الذي يتحدثون عنه ليس من الكبائر أصلاً. أما النمص وهو نتف الحاجبين للتجمّل فقد أوجب لعنة من الله على لسان رسوله ﷺ بالحديث الشريف ومع ذلك
لا يتحدث عنه الناس كحرام بل ويفعلونه وضمائرهم مرتاحة.

وأما قذف المحصنات فقد أوجب الله عليه عقوبة الجلد على شناعة الذنب ومع ذلك لا نخوف أولادنا من الوقوع فيه.. فلماذا نصنع من الذنوب الصغيرة كبائر في حين نغتاب إحدى المغنيات، ونرميها بالزنا ونحن نضحك ولا نحمل ضمائرنا ذنب القذف الذي يستوجب حداً من حدود الله؟!

فيما عدا ذلك فإن الله جلّ وعلا يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك به. {**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...**} [النساء: 48] وكيف ندعي أن الله يضيع إيمان أحدنا إن أذنب من صغائر الذنوب؟

وفي سورة البقرة جاء: **{... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنْ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}** [البقرة: 143].

كما أن الله تعالى يستحيل أن يضيع إيمان من آمن به وصلى وصام، وفي هذا قرآن يتلى: **{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...}** [آل عمران: 195].

فكيف ندّعي أن الله أحرق جسد إنسانة مؤمنة مصلِّية قبل أن تُدفن وقبل أن تُسأل وتُحاسب؟ هذا ظلم لرب العباد، سبحان الله عما يصفون. لا أقول إن الله سبحانه وتعالى لن يعاقب الناس على ذنوبهم الكبيرة والصغيرة ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد الحساب يوم القيامة وليس قبل الدفن، فلا يعجل العقاب إلا للعاق بوالديه فذاك يُعاقب في الدنيا والآخرة والله أعلم.

لا تظلموا ربكم ولا تنسبوا إليه ما لا تعلمون، فالله قال لرسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه إنه لا يملك شيئاً من أمر الحساب. لا أحد يعلم من سيعذبه ربه ومن سيغفر له حتى وإن كان ظالماً فكيف بالمسلم المصلّي؟ فإن لم يدرك علم هذا الحساب من العذاب أو الثواب رسولنا الكريم، فالأوْلى ألاّ يدعي أحد بعده هذا العلم فهو من غيب الله تعالى **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}** [آل عمران: 128] **{رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ...}** [الإسراء: 54]. **{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [آل عمران: 129].

{... وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً} [الإسراء: 54].

فكيف نتجاوز حدودنا وندّعي أننا نعلم أن الله لن يغفر لفلان أو سيعذبه ونحن لا نعلم؟ ونلعن أحد المغنين وننعته بالكافر، ثم نكتشف أن الله ختم له حياته على الإيمان وهو يصلي! فقد كان أصحاب النبي ﷺ لا يشكون في من أوجب الله له النار وذكرهم في كتابه، كقاتل النفس وآكل مال اليتيم وقاذف المحصنات وشاهد الزور، حتى نزلت هذه الآية **{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...}** [النساء: 48] فأمسك أصحاب النبي عن الشهادة وأرجؤوا الأمر إلى الله عَزّ وَجلّ. وهذه الآية مشروطة بالتوبة فمن تاب من أي ذنب بصدق التوبة تاب الله عليه،

ولهذا قال سبحانه وتعالى: **{قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...}** [الزمر: 53].

فلا تفتروا على الله بالكذب وتدعون علم أشياء لا يعلمها إلا الله فهو لم يعطِ الإذن بالخوض في موضوع الحساب حتى لحبيبه وسيد المرسلين عليه صلوات الله وسلامه فكيف تدّعون العلم بها **{وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ}** [النحل: 116].

فهذه القصص تضعف ثقة الناس بربهم وبعفوه ورحمته وعدله، وقد جاء في الحديث الشريف أننا لو لم نذنب لذهب الله بنا وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون ويغفر الله لهم. لذلك لا بد لنا كمسلمين أن نتقي الله في الإسلام، ونكفّ عن تشويهه، فلا نظلم الرحمن الرحيم فهو أعظم من أن يعاقِب قبل أن يحاسِب، وأعدل من كل خيالاتكم وقصصكم الملفّقة.

هل تعلم لماذا يُعدّ المسلمون أفضل الأمم؟

لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحبّبون بطاعة الله ولا ينفّرون الناس منها **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...}** [آل عمران: 110] لكن، عندما نقوم بانتقاد أي شخص على تصرف فيه شيء من الحرمة أو ننصحه لتغيير موقفه فقد يتقبّل منا وقد ينفر منا ومن وجودنا **{وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ...}** [البقرة: 206] وقد جاء في قوله تعالى: **{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ...}** [الحج: 78] أي أن الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم كله جهاد. كما قال تعالى: **{... اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ...}** [آل عمران: 102] وقوله: **{... هُوَ اجْتَبَاكُمْ...}** [الحج: 78] أي إن الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضّلكم وشرّفكم على سائر الأمم، وخصّكم بأكرم الرسل وأكمل شرع. فواجبنا أن نحافظ على ديننا من التحريف والمس بجوهره، ممن يحاول استخدام بعض أحكامه بطريقة خاطئة تنفّر الناس منه، وتظهره وكأنه دين القسوة والقتل، أو العكس، وكأنه دين التسيّب والاستهتار. فما نحتاج إليه هو النصح والتوضيح لإبعاد الناس عن هاتين الهوتين لكن بطريقة مهذبة ولطيفة مع مراعاة الستر. ومما أثار إعجابي وأدهشني عندما قرأت الآية الكريمة: **{يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}** [لقمان: 17].

أن الله تبارك وتعالى علم أن الناس مهما حاولت أن تكون لطيفاً في نصحهم، قد يؤلمهم انتقادك لهم أو أسلوبك في الكلام، أو شعورهم بأنهم لم يخطئوا. فقليل ممن أحبك قد يتقبّلون

ويتجاوزون، أما الباقون الذين لا يكنون لك القدر نفسه من المحبة والاحترام فقد يحاولون إيذاءك بكلمة قاسية أو تصرف محرج أو أنهم سيكرهون حضورك.

لذلك كانت تتمة الآية الكريمة تتحدث عن الصبر، وعما قد يصيبك من أذى الناس بسبب نصحهم المستمر، ومحاولة نهيهم عن الأفعال التي لا يقبل بها شرع الله، وتوجيههم إلى الأصلح. والشيء المهم هو أنك إذا سكت ولم تتكلم خوفاً على مشاعرهم، وحفاظًا على دوام علاقتك بهم، فقد تكون شريكاً لهم في الإثم لأن السكوت وعدم النهي عن المنكر قد تكون عاقبته أن يعم العذاب على من أخطأ، ومن سكت عن الخطأ.. **{وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}** [الإسراء: 16]، لذلك كانت خاتمة الآية أن ذلك من عزم الأمور، أي أن الصبر على أذى الناس هو من عزم الأمور.

فكم من الحكمة العظيمة تحمل هذه الكلمات القليلة التي أوصى بها لقمان الحكيم ابنه؟!

الشكر والكفر بنعم الله

كيف يكون تجاهل شكر الله على نعمه موجباً لعقاب الله؟ جاء في قصة وردت عن أهل سبأ تلك المدينة القديمة في اليمن قوله تعالى: **{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}** * **{فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ}** * **{ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ}** [سبأ: 15-17].

لم يطلب الله منهم إلا الشكر له على نعمه. إن عدم شكر الله على نعمه والاعتراف بفضله هو نوع من أنواع الكفر بنعم الله، والجحود بها أوجب على تاركيه كل هذا العقاب الأليم.

والسؤال هنا للتأكيد على أن العقاب لم يكن إلا بسبب الكفر بنعم الله وفضله. وفي السورة نفسها قال تعالى: **{يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}** [سبأ: 13].

نشعر في هذه الآية بالألم، فكم هو عظيم رب العباد وكيف يعلمنا أدب الشكر فهو رب ويَشْكُر، فكيف بنا نحن العباد يصعب على نفوسنا أن تشكر فتتكبر. نحن المخلوقين نتكبّر عن الشكر لربنا العظيم أو لأحد من عباده الأقل منا شأناً ممن قدم إلينا معروفاً!

فهلاّ شكرنا لرب العباد وللعباد حتى نكون من القليلين الشاكرين؟ فكثيرون منا يتركون شكر الله لأنهم اعتادوا وجود هذه النعم ولم يعد يخطر في بالهم زوالها إن لم يتحسّسوها ويشكروا الله عليها، وغالباً ما يكون هؤلاء كثيري الشكوى ولا تجد في قلوبهم الرضى على من حولهم؛ يقولون

«الحمد لله» بألسنتهم لكن قلوبهم غير راضية وغير شاكرة **{... وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}** [سبأ: 13] فلنشكر كي لا يحل علينا سخط الله وعذابه.

وهناك نوع آخر من القول من المهم أيضاً أن نبتعد عنه لأنه من الكفر بنعم الله، خصوصاً وأننا أصبحنا نمارسه دون أن نشعر فنقول: أنا نجحت لأني أستحق النجاح، بدل أن نقول: أنا نجحت لأن الله وفقني للعمل والنجاح.

انظر إلى من يحدّثك

عندما تتحدث مع شخص فينظر إليك تشعر باهتمامه بما تقول واحترامه لك. لكن يحدث أحياناً ألا ننتبه لمن يحدثنا فنشيح بنظرنا عنه، وقد نلتفت إلى غيره أو نبدأ بتصفح برنامج على هاتفنا، ونتجاهل المتحدث. فنكون قد أهنّاه وقلّلنا من شأنه.

إذا كنت ممن يشيح بنظره عن الشخص الذي يتكلم معك فاسمع ماذا علّمنا القرآن عن أدب التحدث مع الناس.

جاء في تفسير قوله تعالى **{وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ...}** [لقمان: 18] أي لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم أو لا مبالاة بحديثهم، ولكن ألِنْ جانبك لهم وابسطْ وجهك إليهم كما جاء في الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط».

وقال ابن عباس رضي اللَّه عنْه: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك وتتكلم وأنت معرض. هذا الأدب يعلمنا إياه رب العباد لنفعله مع عامة الناس، فكيف بنا إن فعلنا ذلك مع والدينا؟ أعاننا الله على بر والدينا وحسن التعامل معهما والإحسان إليهما وحسن التعامل مع كل الناس.

لماذا يتبع الفقراء الرسل؟

ترى هل يعمي المال أصحابه عن رؤية الحقيقة ويطمس على قلوبهم؟ أم أن المال وترف العيش يجعلان الناس يظنون أنهم على حق ولو كانوا مخطئين؟ أم أن الأغنياء يظنون أن أموالهم وأولادهم ونعم الله الكثيرة عليهم هي دليل على محبة الله لهم؟ أم أن الفقير لا يملك ما يخسره؟ أم أنه يجد في دين الله العدل الذي يبحث عنه ولا يجده؟ أم أن بصيرة الفقراء تكون أقوى؟

لم أعرف السر في اتباع الضعفاء للرسل، وتكذيب الأغنياء على مر الزمان لرسلهم، ولكنني أصبحت أثق بالضعفاء من الناس أكثر بعد قراءة الآيات التالية وتفسيرها والتي تحمل المعنى نفسه انظروا إلى قوله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}** [سبأ: 34].

يقول تعالى لنبيه، ويخبره بأنه ما بعث نبياً في قريةٍ إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤها كما قال قوم نوح: {... **قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ**} [الشعراء: 111]، **{... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ {*} الرَّأْيِ...}** [هود: 27]، وقال الكبراء من قوم صالح: **{قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ}** * **{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}** [الأعراف: 75-76]، **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا...}** [الأنعام: 123]، **{وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ...}** [الإسراء: 16].

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ...} [سبأ: 34] أي: نبي أو رسول **{... إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا...}** [الزخرف: 23]، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة. قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم

ورؤوسهم في الشر. **{... إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}** [الزخرف: 24] أي: لا نؤمن به ولا نتبعه.

وقد ذُكرت هذه القصة في تفسير ابن كثير وجاء فيها:

كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بُعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله: ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم.

فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه، وكان يقرأ الكتب، أو بعض الكتب. قال: فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال: «إلى كذا وكذا». قال: إنك رسول الله. قال: «وما علمك بذلك؟». قال: إنه لم يُبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم. فنزلت هذه الآية: **{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}** [سبأ: 34].

قال: فأرسل إليه النبي ﷺ: «إن الله قد أنزل تصديق ما قلت».

وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأل: أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، قال: وهم أتباع الرسل.

وقوله تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: **{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}** [سبأ: 35].

أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك.

قال الله: **{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ} * {نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ}** [المؤمنون: 55-56].

وقال: **{فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}** [التوبة: 55].

وقال تعالى: **{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} * {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ} * {عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} * {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} * {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا} * {وَبَنِينَ شُهُودًا} * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا}** [المدثر: 8-17].

فلا تغني أموال الأغنياء ولا أولادهم عن عذاب الله من شيء، فإنما يختبرهم الله بها. فالاختبار قد يكون بالنعمة أيضاً ولا يكون فقط بالقلّة والضعف والفقر.

الكلم الطيب

هل تعلم ما هو الكلم الطيب؟ الكلم الطيب هو ذكر الله عَزّ وَجلّ.

وهل تعلم كيف يرفع الذكر؟ يرفع الذكر بالعمل الصالح.

يقول تبارك وتعالى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ}** [فاطر: 10].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الكلم الطيب: ذكر الله، يصعد به إلى الله عَزّ وَجلّ العمل الصالح، والعمل الصالح: أداء فرائضه. فمن ذكر الله ولم يؤدِّ فرائضه، رد كلامه على عمله، فكان أولى به.

وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب.

وقال إياس بن معاوية القاضي: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام.

وقال الحسن وقتادة: لا يُقبل قول إلا بعمل.

فالعمل هو الدليل الأقوى على معتقداتنا وقناعاتنا ومشاعرنا واحترامنا لذاتنا أو لغيرنا لأن الأفعال دائماً هي أبلغ من الأقوال. ولو حاولنا تكبير دائرة المعنى قليلاً يصبح الكلم الطيب هو كل كلمة فيها خير، من إصلاح بين الناس إلى أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو مواساة لمريض أو حزين أو دعم معنوي ليتيم. فيكون هذا الكلام الطيب بحاجة إلى أعمال صالحة ترفعه معها إلى الله عَزّ وَجلّ.

ولو وسّعنا مفهوم العمل الصالح إلى ما هو أكثر من الفرائض.. لأصبح يشمل أي عمل نريد به رضا الله، من مساعدة لشخص محتاج إلى دعم مادي أو صيام نفل أو خدمات لوجه الله أو تعليم. عندها سنتخيل كل عمل صالح يُرفع إلى الله تبارك وتعالى يحمل معه كل كلمة طيبة قلناها نريد بها الأجر من الله كالتسبيح والذكر. وإذا كان الله يكافئنا على كلامنا فسييسّر لنا عملاً صالحاً يرفعه ويثبته. فكيف يطلب منا بعض الناس أن نصدق كلامهم وهم يعملون عكس ما يقولون؟!

مفاتيح الغيب

هل تعلم ما هي مفاتيح الغيب؟

هي أشياء لم يعطِ الله تبارك وتعالى علمها أحداً من خلقه، لا نبياً ولا رسولاً ولا ولياً ولا جنّاً ولا إنساً ولا ملائكة إلا عند نزول القدر. فمن ادّعى أنه يعلم شيئاً منها فهو كاذب.. **{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** [لقمان: 34].

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرّب، **{... لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ...}** [الأعراف: 187]. وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله. ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه. **{وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا...}** [الشورى: 28]. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً، علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه.. **{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ...}** [آل عمران: 6]. وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وآخرتها، **{... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...}** [لقمان: 34]. في بلدها أو غيره من بلاد الله، لا علم لأحد بذلك. وهذه شبيهة بقوله تعالى: **{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ...}** [الأنعام: 59]. وقد وردت السنّة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب.

فضل الدعاء بآية من القرآن

{... رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [الكهف: 10].

هذه الآية منارة تنير لنا عتمة المستقبل عندما يكسوه الظلام؛ نخاف ولا ندري أي الطرق أسلم، وأيها يحمل الخير لنا، وأيها يخفي عذاباً نحن في غنى عنه. عندها نشعل بهذا الدعاء شمعة تنير لنا الطريق وتفتح لنا باباً لم نحسب أنه موجود. ليس فقط لأن الفتية أصحاب الكهف دعوا بها عندما لفهم الخوف، وأرعبتهم عتمة المستقبل، وضاقت عليهم الدنيا، ولم يجدوا للنجاة بإيمانهم طريقاً سوى الله فالتجؤوا إليه ليهديهم إلى طريق الصواب ويساعدهم في محنتهم، وهو بالتأكيد لم يخذلهم بل جعلهم عبرةِ لمن بعدهم على مر العصور. ليست القصة ومشابهتها لحال قد يمر به أي إنسان هي وحدها سبب كونها آية رائعة، بل لأنها ككل آية من القرآن تحمل بين حروفها جزءاً من إعجاز القرآن الكريم، هذا الكتاب المعجزة، لذلك هي من أروع أدعية القرآن وأفضل دواء لحال كهذا. فكما جعل الله تبارك وتعالى لكل داء دواء، جعل لكل حال دعاء وآية تعلمنا كيف ندعو وماذا نقول، وتحمل هذه الآية بين حروفها جزءاً من الحل ونوعاً مختلفاً من الاستغاثة بالله. لذلك يفضل الدعاء بأدعية أصلها آية من آيات القرآن الكريم لأننا نكسب بتكرارها ثواب قراءة القرآن ونوره وبركته – والبركة هي ذاك السر الخفي الموضوع بين كلماتها – فعلى كل حرف سبعون ملكاً يدعون لنا بالإجابة. هكذا نكون قد تعلمنا من القصص الواردة في القرآن كيف ندعو وماذا نقول في حال مشابه، فعندما نحتار ونشعر بأن الطرق أمامنا مغلقة لندعُ كما دعا أصحاب الكهف **{... رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا}** [الكهف: 10]، ومن رحمة الله تبارك وتعالى أن ترك لنا معجزة نبينا الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، تركها بين أيدينا لنتلمّسها ونراها ونشعر بعظمتها، ولنشعر بالدهشة مما نجده فيها من إجابة وفضل ونور. فكلما تلوناها أو دعونا بأدعيتها بيقين أكبر، كان ما نراه منها من نور وهداية أروع، وكل منا يراه حسب درجة إيمانه ويقينه بكونها معجزة وجزءاً من معجزة. إنها تعلمنا كيف ندعو الله فيستجيب ويحقق لنا بقدرته المعجزات في زمان أصبح الناس فيه لا يؤمنون بالمعجزات.

كيف نكسب ثواب أعمالنا؟

كم هو رائع عطاء الله جل وعلا إلى عباده، وكم من الجحود والنكران يضمر له بعض خلقه.. فهو لم ينكر عليهم سعيهم في حياتهم ولكنه أعطى لكل منهم ما سعى إليه؛ فمن عمل في حياته عملاً أراد به شيئاً من متاع الدنيا، من مال أو شهرة أو سعادة أو مجد أو علم، أو أن يقال إنه عمل شيئاً مفيداً، فإن الله قد يعطيه ما سعى إليه في حياته دون أن ينكر عليه جهده في سبيل ما أراد. أما الآخرة فليس له منها نصيب أو ثواب أو أجر، لأنه عمل للدنيا ما كان يجب أن يعمل للآخرة، فحبط عمله.. أي لم ينل أجر الآخرة، ولكنه أخذ أجر عمله في الدنيا فقط لأن هذا ما أراد. وشرط الأجر في الآخرة هو الإيمان فلا يُعطى الأجر في الآخرة إلا لمؤمن بوجود الله **{وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}** [الإسراء: 19].

فقد عاب الله تبارك وتعالى على بعض المسلمين أنهم كانوا في حجّهم لا يدعون إلا بقضاء الحوائج الدنيوية فقط، ومع ذلك لم يعاقبهم، ولكنه أعطاهم ما طلبوا من خيرات الدنيا فقط لأنهم طلبوها ولم يطلبوا شيئاً من حوائج الآخرة، ثم علّمهم كيف يجب أن يكون الدعاء كي لا يضيع أجر أعمالهم. فالله سبحانه وتعالى يوجّه عباده إلى الطريق الصحيح وإلى ما يجب قوله أو فعله. يقول تعالى: **{فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ}** * **{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** * **{أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** [البقرة: 200–202]. فلو عمل الإنسان عملاً من أعمال الدنيا وأراد به الثواب من الله في الآخرة، لحصل على أكثر مما أراد في الدنيا والآخرة، ولأعطاه الله التوفيق والمعونة والبركة والتيسير، ولضاعف له الأجر من سبعة أضعاف إلى ما شاء الله له من الثواب والبركة **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}** [الشورى: 20]. وهذا يشمل كل مؤمن بوجود الله مسلماً كان أم كتابياً – مسيحياً أو أي إنسان مؤمن بأي رسول من رسل

الله – وهذا خلاف ما يظنه بعضهم من أن المسلم فقط من يؤجر على أعمال الخير. وهذا واضح وجلي في قوله تعالى: **{وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}** [آل عمران: 146] الربيون هم الذين يعبدون الرب عَزّ وَجلّ **{فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [آل عمران: 148].. **{وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}** [آل عمران: 115]، وليس كل أهل الكتاب سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، وعند الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

لذلك وجب علينا في أي عمل نعمله في حياتنا حتى لو كان دنيوياً إلى أبعد الحدود، كالطعام والشراب والمتعة، أن نجعل نيتنا فيه لله خالصة، كأن ننوي أننا نتنعّم بنعم الله كما أمرنا بالحلال كي لا نقع في الحرام ونتقوى بها على عبادته ونشكره على نعمه **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}** [البقرة: 172]. وهكذا نحصل على الأجر المضاعف في الدنيا والآخرة والرضا من رب كريم عارف عالم، يعلّمنا في كتابه وآياته كيف يجب أن تكون نوايانا كي نكسب النعيم في الدارين الدنيا والآخرة، وكي نعرف أن النية – إن لم تكن لله أولاً – فقد تضيّع علينا ثواب أعمالنا في الآخرة ويبقى لنا الثواب الدنيوي فقط، وأن الدعاء يجب أن يكون للدنيا والآخرة معاً.

كيف نتصرف مع من وقع في الحرام؟

ماذا نفعل لو هوى أحدنا في الحرام؟ وأدمن على فعله؟

هذه قصة وردت في تفسير ابن كثير تعلمنا كيف نتصرف إذا ما ضلّ أحدنا طريق الصلاح.

قال ابن أبي حاتم: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنْه، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟

فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع في هذا الشراب.

فدعا عمر كاتبه فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، أما بعد:

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير».

ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، وأن يتوب الله عليه.

فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرأه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي.

فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع فلما بلغ عمر رضي الله عنْه خبره قال: «هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم زلّ زلّة فسدّدوه ووفقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا

تكونوا أعواناً للشيطان عليه».

«هذه أخلاق الإسلام التي نسيناها وحفظنا كيفية الوضوء والصلاة فقط.. هكذا جهلنا حقيقة أخلاق الإسلام وابتعدنا عنه عندما تمسكنا بظواهره ونسينا جوهره وأخلاقه. هذه القصة تعلمنا أن لا نجعل من ارتكب شيئاً من الحرام أحاديث تسلي سهراتنا، ونزيد عليها الكثير من الكذب والشماتة والإساءة. تعلمنا أن ندعي لمن ابتلى بهكذا معاصي بالهداية فقط! ونذكره بالله وعقابه، ونحيي في قلبه مخافته، ونذكّره بنعم الله عليه حتى يخجل من نفسه ومن ربه فيتوب، بدل استغابته وتحقيره وإعابته.

ساعدوه بدل أن تشتموه وادعوا له بالهداية لأنه قد يكون أحد أبنائكم أو إخوانكم، ولا تَدعوه ليغرق في ذنوبه أكثر وتشيحوا بوجوهكم عنه وكأن أمره لا يعنيكم، فقط لأنه أخطأ وأذنب، فالإسلام الحقيقي لا يكون هكذا، ولا نكفره ونستكثر عليه دعوة صادقة قد تعيده إلى طريق الصواب. كم فهمنا الإسلام بشكل خاطئ وتمادينا بالخطأ أو ربما ابتعدنا عنه حتى لم نعد نعرفه.

الطيبة أعظم خلق

من منا لم يتعرض للظلم في وقت ما؟ أما رد فعلنا على من ظلمنا فهي التي ترسم ملامح روحنا وتطبعها بطابعها الخاص الذي يميزها، ويحدد من أي صنف من الناس نحن، وتظهر حسن خلقنا أو سوءه، وكم تبلغ ثقتنا بالله وبقدرته على الانتقام لنا أو منا. ربما يتباهى كُثُر بأنهم يستردون حقوقهم ممن ظلمهم، أو حتى ممن حاول أن يتمادى معهم أو يسلبهم حقوقهم أو بعض ما يملكون، وهذا ليس خطأ بل هو حق **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}** [الشورى: 39]. فقد شرّع الله العدل وهو القصاص فأن تستعيد حقك من كل من يسيء إليك هذا هو العدل. وجاء هذا في كتاب الله عَزّ وَجلّ: **{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** [الشورى: 40].. **{وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ}** [الشورى: 41].

ولكن يوجد في الآية خيار آخر لا ينتبه إليه كثير من الناس ألا وهو العفو. فبالرغم من عجز بعض الأشخاص عن ممارسة هذا الخلق العظيم، سواء استطاع الرد على السيئة بسيئة مثلها أم لم يستطع، فهو في النهاية لم يرد! وربما لم يتمكن من الرد لضعفه أمام المسيء، أو لأن الرد على السيئة بمثلها لا يتوافق مع أخلاقه، أو لأنه يثق بالله ثقة عظيمة تجعله واثقاً من أن حقه لن يضيع حتى لو سكت، فلم يرد بل اكتفى بأن يوكل الأمر لله بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل. ففي كل الأحوال إن استطعنا أن نعفو عندما تأتينا الفرصة للرد هنا تكون القوة وهنا يكمن الأجر من الله عَزّ وَجلّ وذلك من العفو عند المقدرة أي أننا لم ننتقم برغم قدرتنا على الانتقام. فعدم الرد هو خلق أرفع وثقة أكبر بالله. والفائدة الثانية من بعد الأجر أن يتولى الله عَزّ وَجلّ الانتقام لنا وهو الذي يسترد لنا حقنا ممن ظلمنا وينصرنا عليه ولكن بطريقة تليق برب قوي ذي انتقام ورب عظيم ومنصف، استنصره عبد ضعيف مظلوم فنصره. هكذا يكون أجر العافي عند الله عَزّ وَجلّ أعظم بكثير ممن

انتقم لنفسه، فإن سبك أحدهم واستطعت الرد ولكنك أمسكت عنه، في هذه الحال يبقى أجرك على الله فيرد عليه ويعطيك أجر إمساكك عنه.

أما إن دعوت على ظالمك فقد استنصرت لنفسك وليس لك في ذلك ثواب أو عقاب ولم يعد حقاً على الله نصرتك. جاء في الحديث الشريف عن الحبيب المصطفى ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد استنصر لنفسه» رواه البخاري.

{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [الشورى: 37].

أما في هذه الآية الكريمة فنجد أن مسامحة المسيئين إلينا أخذت مرتبة أعلى لأنها تعني أن تكون سجية الإنسان وطبيعته تقتضي العفو والغفران وليس الانتقام، أي أن روحه لا تشتهي الانتقام أصلاً لأن الانتقام يشوه الروح ويذهب الأجر من الله.

لهؤلاء الأشخاص المسالمين الطيبين مكانة أخرى عند رب العباد فقد جاء في قوله تعالى **{... وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ...}** [النساء: 146] أي استعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به. **{... هُوَ مَوْلاَكُمْ...}** أي حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم. **{... فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}** [الحج: 78] يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء. وروى الوهيب بن الورد الحديث القدسي: «يا ابن آدم اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظُلمت فاصبر وارضَ بنصرتي فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك» رواه أبو حاتم.

إلى كل من اتصف بهذه الصفة من الطيبة والعفو والغفران أقول له افتخر بامتلاكك روحاً طيبة وهبها الله لك فحافظ عليها فلك فيها عز من عند الله، ولو فهمها من حولك من ضعاف النفوس والإيمان على أنها ضعف وغباء فإنما يدل ذلك على جهلهم.

فلو فكّر الإنسان قليلاً لاكتشف أنه مهما يفعل ليرد على ظالم آذاه لن يستطيع أن يسترد حقه كاملاً ويشفي غلّه لأن الألم سيبقى حتى لو انتقم، وربما سيفقد بعد أن ينتقم احترامه لذاته فيكون الأذى قد ارتد عليه بانتقامه وأصبح أكبر. أما الله جل وعلا فهو الأقدر على الرد وأقوى وأحكم. جاء في الحديث الشريف عن سيد الخلق سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنْه أنه قال: «فما زاد الله تعالى عبداً يعفو إلا عزاً ومن تواضع لله رفعه» وهو حديث صحيح. وقال تعالى: **{وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}** [الشورى: 43].

ومن أروع ما قرأت عن العفو قصة وردت في تفسير ابن كثير أن رسول الله ﷺ كان في مجلس ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضي اللَّه عنْه فسبّ أعرابي أبا بكر فسكت عنه ولم يرد عليه والرسول يبتسم. فازداد الأعرابي وأخذ يزداد إساءة إلى أبي بكر واستفزازاً له حتى رد عليه. فتغير وجه النبي ﷺ وقام من مجلسه فلحق به أبو بكر فسأله لمَ تغيّر وجهه وقام من مجلسه؟ فقال له النبي الكريم ﷺ: عندما كان الإعرابي يسبك وتصمت كان هناك ملكان يردانه عنك ويدعوان عليه، لكن عندما رددت أنت تنحّى الملكان وجلس الشيطان بين يديك فأبيت أن أجلس معه فقمت من مجلسي.

يجب ألاّ ننسى هذه الصورة الرائعة ويجب أن تحفر في وجداننا هذا الموقف كي لا ننسى أبداً أننا طالما صمتنا أمام من يسيء إلينا فهناك ملكان يردانه عنا، وإن رددنا على الإساءة دعونا الشيطان ليفرق بيننا، اللهم ذكرنا بها عند الحاجة. هذا هو الخلق الذي يعلمنا إياه الإسلام.

الصمت

الصمت هو خلق الأكرمين، لكن للصمت قواعد وأصولاً. في بعض المواقف يكون أبلغ من الكلام، لا يفهمه إلا الحكماء. لم يحاول أحد تعلم فنونه، ولا يجيد استخدامه إلا قلة.

فأن تصمت أمام تافه يهينك، أو خبيث يحرجك، أو غبي يستهزأ بك، أو شخص كنت تظنه يحبك وهو الآن يظلمك. أن تصمت في تلك اللحظة بالذات، تلك هي القوة التي تدل على تربية وأخلاق راقية. والأجمل من هذا أن الصمت هنا هو خلق عظيم، وهو من أعلى درجات الإحسان، فقد اخبرنا الله جل وعلا أن كاظمي الغيظ هم من أحب الناس إليه.. **{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [آل عمران: 134]. فقد ساوى الله بين كاظمي الغيظ وبين المنفقين والمتصدقين؛ فمن صمت عند إيذاء الناس له كأنه تصدق عليهم بماله وهم فقراء إليه معوزون.. مقارنة غريبة ورائعة! ولكن هل يعلم الناس أن صمتنا عند تطاولهم علينا هو بهذه العظمة؟ وأن إيماننا القوي بالله هو من جعلنا نستطيع أن نصمت في حين يعجز كثيرون عنه على الأخص في المواقف الصعبة كهذه؟ بالطبع لا يعرفون، فهم من تفاهة تفكيرهم وسخفهم يفهمون صمتنا ضعفاً ويفرحون كثيراً بإهانتهم لنا ويشعرون بالنصر والنشوة، وينظرون إلينا بازدراء على أننا أضعف من أن نرد عليهم وهنا تكمن المفاجأة، ينتقم الله لنا منهم وربما يرسل إليهم من يهينهم ويذلهم ويجعلنا نسمع أو نرى ذلك فيهم.

من جهة أخرى إن للصمت منافع. فعندما يكون الخلاف بين زوجين ويسيء أحدهما للآخر فيصمت، فالذي صمت هنا يتصرف بذكاء وحكمة. لأنه إذا رد فقد يفقد أعصابه ويفتح أبواباً لمشكلة قد يخرج منها مجروحاً أكثر ولن يستطيع أن يتوصل إلى حل بسبب فقده لتوازنه وعدم

السيطرة على أعصابه، وقد يقول أشياء يندم عليها حقاً ويوسّع من فجوة الخلاف وكأنه فتح باباً للجحيم قد يعجز عن إغلاقه خاصة عندما تعلو الأصوات وتتشعب المشكلة وتكبر فتكون دفة الحق معه وفجأة تنقلب عليه. لهذا، فمن الذكاء والحكمة أن يصمت الإنسان في مثل هذه المواقف ويفكّر ملياً وينتقي كلماته بعناية ويضع الحلول للمشكلة، وينتظر حتى تنتهي سوْرة الغضب كي تتوازن الأمور وتهدأ النفوس ثم يقول كل ما يريد ويستعيد حقه بهدوء. فالكلمة القاسية التي تخرج أثناء الغضب قد تدمّر ما بنيناه في سنوات، وقد نشعر بعدها بالندم ولن نستطيع محوها أبداً وإن أردنا ذلك.

هكذا يكون الأشخاص الذين يستطيعون أن يصمتوا في المواقف الصعبة، والخلافات الكبيرة، والاستفزازات الشيطانية، هم الأكثر حكمة، والأرفع خلقاً، والأكثر إيماناً بقدرة الله وعدله وانتقامه من كثيرين غيرهم ينجذبون بسهولة إلى استفزازات التافهين. لذلك يجب أن نتعلم الصمت، وأن نفهم أنه في بعض الأحيان يكون أعظم وأبلغ من الكلام، وأن استخدامه في وقته المناسب قد يحل كثيراً من المشاكل بالرغم من صعوبة تطبيقه. فالصمت يحتاج إلى القوة التي لا تتوفر عند كثيرين.. **{وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا}** [الفرقان: 63]. فالجاهلون والسفهاء من الناس لا يستحقون أكثر من كلمة واحدة: سلام.. والصمت الذي لا يستطيع تفكيرهم المحدود أن يفهمه.

الكلام المحرم

يخوض كثير من الناس في مجتمعنا – ويا للأسف – بأعراض الناس ويتهمونهم بالزنا فقط لمجرد الشبهة في موقف قد يكون بريئاً أو لكونهم غير ملتزمين بالدين، وأكثر ما يؤذي هذا الكلام النساء. وبخاصة المرأة التي تتعامل مع الرجال من دون تحفظ، ومن دون التزام بالحدود التي وضعها الله في شريعته من حجاب وعدم إظهار المرأة لزينتها ومفاتنها أمام الرجال الغرباء، والاختلاط الشائع في مجتمعاتنا والذي يعتبره البعض تحضراً.. وهذه الأحكام وضعها الله حفاظاً على سُمعة المرأة وشرفها من ضِعاف النفوس ومن الجاهلين الكثُر الذين قد يلوكون سمعتها بالأكاذيب. وما زاد الأمر سوءاً عدم إقامة الحد على أولئك الكاذبين الذين يستسهلون الكلام بهذه الطريقة المُسيئة والمُحرمة شرعاً عن الأعراض ولا يعلمون حجم الذنب الذي يقترفون.

وقد ازدادت هذه الظاهرة في مجتمعاتنا فأصبح الكلام المُحرم شرعاً كالخوض في أعراض الناس ورميهم بالزنا في ظاهر القول أو في باطنه نوعاً من التسلية والترفيه. وللأسف يتكلم هؤلاء الناس ويبنون قناعاتهم الخاطئة على شبهات لا أكثر.

إن تحريم الاختلاط في السهرات الاجتماعية ليس تخلفاً ولكنه صيانة للنفس وللسمعة من ضعاف النفوس، الذين يتحيّنون أي موقف ليطلقوا العنان لظنونهم التي ليس لها حدود، وألسنتهم التي ليس لها قيود، لا يعرفون أن المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه، فالكلام الذي يُسيء إلى السُمعة يُقام فيه الحد أي – العقاب بالجلد العلني – وهو كالسرقة التي يُقام فيها الحد – قطع اليد – بينما يعتبرون إزالة الحجاب ردة وهو في الشرع ليس عليه إقامة حد.

فلماذا يستسهل الناس الخوض في الأعراض في حين يعتبرون السرقة حراماً وإزالة الحجاب ردة؟

وقد وُضعت الأعذار للسرقة إن كانت عن حاجة ماسة أو إن كانت من حرز فخفّف حدّها. في حين لم يُرخص أي عذر في الشريعة الإسلامية للخوض في الأعراض، حتى ولو رأى شخص ما فعل الزنا بأم عينه يُجلد ثمانين جلدة إن لم يأتِ بأربعة شهود رأوا ما رآه، وهذا أمر شبه مستحيل إلا في من جاهر بالزنا. وإن لم يحضر الشهداء الأربعة فجزاء من تكلم في العرض الجلد! أي عقوبة تُقارب حد الزنا نفسه، فلا يعفيه من الجلد إلا الشهود الأربعة. وبالرغم من فظاعة الذنب تجد الناس يتحدثون دون حرج في الأعراض. وقد جاء في هذا آية واضحة في القرآن الكريم. قال تعالى: **{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** [النور: 4]. والمُحصنات جمع محصنة أي الحرة البالغة العفيفة. بل وزاد تغليظ عقاب من يتحدث بالأعراض، فيرمي الناس بالزنا دون شهود، التجريد من حقوقه المدنية فلا تُقبل له شهادة بأي أمر آخر ليُعرف أمام خلق الله بأنه كاذب ومُفترٍ والعياذ بالله. وكل هذا التضييق على من يتحدث بأعراض الناس أو يرميهم بالزنا بسبب أن عقوبة الزنا أصلاً شديدة الصعوبة فالجلد ليس عقاباً يُمكن تحمله فقد يتوفى الشخص تحت الجلد ويكون هذا الحكم بمثابة الإعدام أو التعذيب حتى الموت وبحضور مجموعة من المؤمنين ليكون عبرة. فالزاني المُحصن أي المتزوج في السنّة عليه الرجم بالحجارة والجلد للأعزب مائة جلدة.. **{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** [النور: 2].

وتُرك باب التوبة مفتوحاً لمن أخطأ، فبالنهاية كلنا بشر مُعرضون للخطأ ولكن لا يشفع عن إقامة الحد شيء، ولكن المغفرة من الله قد تأتي بعد إقامة الحد للزاني أو لمن تحدث واتهم شخصاً بالزنى ولم يأتِ بالشهود الأربعة **{إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [النور: 5]. هذا كان في من تحدث عن شخص بأنه زنى أما من سمع هذا الكلام من المسلمين فله حكم آخر فالإثم يلحق بمن سمع أيضاً إن صدّق ...**} لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ...}** [النور: 11].

وهنا نجد أن بعض الناس يسمعون مثل هذا الكلام البشع فيقيسونه على أنفسهم فلا يتقبّلونه بل ويستنكرونه بسبب الإيمان الذي يسكن في قلوبهم.

{لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: 12] والإفك هو أقبح الكذب وأفحشه. وعندها يطلبون الشهود فإن لم يأتِ من تحدث بالإثم بأربعة شهود فهو الكاذب ليس عند الناس فقط بل عند الله أيضاً.. **{لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ}** [النور: 13].

ويصف الله عَزّ وَجلّ فظاعة التحدث بأعراض الناس بأنه أمر عظيم يستوجب العذاب العظيم والسبب أن الناس يتكلمون في أمرٍ عظيم لا يجوز لهم التكلم فيه حتى لو علموا صحته، فكيف إن كانوا يظنون؟ وفي الوقت نفسه لا يجوز الاستهانة به لأنه عند الله عظيم.. **{وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** * **{إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}** [النور: 14-15].

وهنا يُعلمنا الله جل وعلا كيف يجب أن نرد على من تحدث في مثل هذه الأمور. وهذا من جمال القرآن أنه لا يتركنا نضيع بل يدلنا على طريق النجاة من كل مشكلة تواجهنا، ولكن كثيراً من الناس في زماننا هذا بعيدون جداً عن الوعي بخطورة هذا الذنب بسبب جهلهم بحكمه وحرمته وحده **{وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}** [النور: 16]. والبُهتان هو الكذب الشنيع الذي يبهت سامعه ويُدهشه. فلا يحق لنا التحدث في الأعراض. هذا في من تكلم في أعراض المسلمين، أما في من تكلم عن السيدة عائشة زوجة الرسول الكريم ﷺ ورماها بالزنا أو أساء إليها أو إلى أي زوجة من زوجات الرسول فجزاؤه أعظم ألا وهو اللعن أي الطرد من رحمة الله ويكون عندها مثل إبليس ملعون ومطرود من الرحمة والعفو.. **{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** * **{يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [النور: 23-24]. لهذا أجمع العلماء على أن من سب السيدة عائشة أو رماها بعرضها قد كفر لأنه يُعاند ما جاء في القرآن الكريم في تبرئتها.

في النهاية، أُحبّ أن أنوّه بمعلومة يجهلها كثير من الناس ولا يعمل بها كُثُر ألا وهي حرمة تزويج فتاة شريفة عفيفة بكر أو ثيب من رجل فاجر أي مجاهر بالزنا، وكذلك الزانية لا يجوز لها

أن تتزوج من رجل مسلم شريف إلا إن تابا فيحل عندها التزويج وهذا قمة العدل الإلهي **{الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}** [النور: 3].

وهناك مفهوم خاطئ أيضاً أصبح شائعاً في مجتمعاتنا المسلمة، حيث يقول العامة إن الرجل لا يعيبه شيء! وهذا مفهوم خاطئ. فالحد يقام على المرأة والرجل في حد الزنا بكل عدل وتساوٍ، بينما يغفر المجتمع هذا الذنب للرجل، ويجعل المرأة الطاهرة تدفع ثمنه بتزويجها من رجل يزني ويحمل إليها آثامه ليلوث بها طهارتها بصفته زوجها. فأي ظلم هذا؟

في النهاية أتمنى أن يحل الوعي الديني في مجتمعاتنا التي تبعت العادات ونسيت الإسلام، وأرجو أن ينتبه كل منا لكل كلمة يقولها، وما تحمل من معانٍ مفضوحة أو مغطاة بالظنون، والإساءات المُحرمة لأشخاص قد يكونون أفضل منا عند الله، وأحسن منا خُلقاً أو ديناً أو إيماناً. فقد علمنا القرآن أن كثيراً من الناس قد يحملون قلوباً طاهرة مُضيئة بالإيمان ولو كان مظهرهم لا يوحي بذلك أكثر بكثير من أشخاص يُصلون ثم يلوكون بألسنتهم أعراض المسلمين ويخوضون فيها بالإثم ويزرعون الفتنة والفساد ويسيئون الظن: **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}** [الحجرات: 12] ويترك الله لنا باب التوبة مفتوحاً على مصراعيه لكل من وقع في الذنب ثم علم حرمته وأراد الرجوع عنه. أما من أصر على نشر الفتنة والفساد بين الناس فقد وصف الله مثل أولئك الناس بالفاسقين {**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**} [النور: 19].

فلا يكفي أن نُصلي ونتظاهر بالتقوى كي ننجو من عذاب النار، بل يجب أن يمنعنا إيماننا من الخوض في أعراض المسلمين أو تصديق كل من أساء إليها وإلا فلسنا مؤمنين إن لم نتعظ ونتوب **{يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** [النور: 17].

نقلت لكم ما عرفت، وأسال الله لي ولكم العفو والعافية وطهارة القلب واللسان.

الله هو العاطي

عندما يزيل الله الغشاوة عن عينيك ترى الأشياء بوضوح، وتتأكد أن لا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يساعدك إلا الله، عندها ستخجل من طلب المساعدة من غيره. فاليقين في داخلك يمنعك، ويجعلك تستخف بكل شخص يطلب من إنسان مثله شيئاً ثم يرجوه ويستنجد به ويتذلّل إليه، ستشعر عندها بالاستهزاء وستدرك ضعف إيمان هذا الشخص لأنه يرجو إنساناً ضعيفاً مثله. ليس لأنه طلب منه، فالناس بحاجة بعضهم إلى بعض لكن الخطأ أن يظن أن الأمر بيد هذا الإنسان، فيذل نفسه له بالرجاء والتذلل ولا يجوز التذلّل إلا لله وحده.

تذكّر دائماً أن من أعزه الله فلا يمكن لأحد أن يهينه ومن أهانه الله فلن يعزّه أحد بعده **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [آل عمران: 26]. وستضحك كثيراً على من يقول لك لن أعطيك. يا لقصور عقول بعض الناس! لا أحد يستطيع أن يعطيك شيئاً إن لم يأذن الله له بذلك ولا أحد يستطيع أن يأخذ منك شيئاً إلا أن يشاء الله ذلك، فهو أعلم بحالك. وإن وقفت حاجتك عند شخص فاعلم أن القادر على منعك أو إعطائك حاجتك هو الله فانظر إلى ما بينك وبين ربك أو عباده، وأصلحه يصلح الله لك حالك ويعطك ما منعك، فتأدب وافهم وتعلم من يجب أن ترجو لأجل حاجاتك صغيرة كانت أم كبيرة، تافهة أو مهمة. جرّب أن تطلب من الله قبل أن تتذلّل لعباده عندها ستتعلم وستعلم من هو الله، وكيف أنه إن شاء أعطى وإن أعطى أغنى. **{قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** [طه: 50].

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف» صدق رسول الله ﷺ.

النفاق

هذا المرض المستعصي الذي لم نستطع أن نجد له دواء في كل الأزمان، إلا من شاء له الله أن يشفى منه، والذي ينتشر أكثر في هذا الزمان، حيث يكثر الكذب والنفاق بسبب ابتعاد الناس عن الله، والتمسك من الدين بالقشور والأعمال الظاهرة منه، ونسيان حقيقة الدين وهي التقوى في القلب والعمل، والتحلي بالأخلاق التي حثنا عليها الإسلام، بدل التمسك بالأشياء الظاهرية منه فقط. ومن شدة هذا المرض وفتكه بالعقول والقلوب فإنه يدمر صاحبه ويودي به إلى الهلاك في جهنم، ولذلك فقد استفاض القرآن الكريم بالحديث عن أنواع شتّى منه بُغية إيضاح سُبُل تلافي الوقوع في شباكه للاحتراس منه، وأورد عقوبة كل نوع من أنواعه لتوعية المسلمين حتى لا يقعوا فيه، وبالرغم من ذلك لا يزال كثير من الناس يقع فيه، وكثير يجهلون عقوبته.

في سياق الآيات في سورة التوبة يعلّمنا الله عَزّ وَجلّ أدباً خاصاً بالتعامل مع الله، وأن النفاق هو بكل أنواعه نفاق على الله قبل أن يكون على عباده، والنفاق هو مرض يصيب القلب كابتلاء من الله أو عقوبة منه لمن كانت أخلاقه سيئة، فيخرج الإيمان بالله من قلبه ويحل محله الكفر كعقوبة على سوء تصرف بعضهم مع الله تبارك وتعالى أو مع عباده.

سأتناول بعض هذه الأخلاق السيئة التي أودت بأصحابها إلى النفاق، وليبحث كل منا عنها في قلبه وتصرفاته، قبل أن يبحث عنها في غيره من الناس، عساه يتخلص منها وينقي روحه من إثمها ويشفيها منه. طهّر الله قلوبنا من النفاق ومن الأخلاق السيئة وأجارنا من عواقبها.

هناك أوجه كثيرة للنفاق تصب جميعاً في قالب واحد؛ فالمنافق هو شخص يُظهر الخير ويُخفي الشر ويقول ما لا يفعل **{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى**

النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: 101]. فللمنافق إن استمر على النفاق ومات على ذلك عذابان: الأول في الدنيا والثاني في القبر ثم عذاب ثالث يوم الحساب.

وسنتحدث بداية عمن ينافق على ربه فيطلب منه إدرار الرزق وإكثاره، ليتصدق أكثر وليتمكن من عمل الخير من زكاة وصدقة، ويكون من الصالحين فيعطي كل ذي حق حقه من أهله وعياله والفقراء والمساكين، فهم أصحاب حق في جزء من مال كل مسلم. ولما رزقه الله أخلف هذا الإنسان وعده لربه بالإنفاق مما آتاه، فما وفى بما وعد، ولا صدق في ما ادّعى، وانشغل بالمال عن الصلاة والعبادة، فما شكر لله ولا أعطى منه صدقة، وكلما ازداد المال أكثر انشغل بماله أكثر عن أداء حق الله وعباده، حتى امتنع عن الزكاة الواجبة. فكان عقاب الله له بالغ السوء أن أعقبه نفاقاً يسكن قلبه إلى يوم الدين لا يشفى منه، وأصبح مرضاً لا شفاء له منه إلا إن شاء الله له الشفاء.

{فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} * **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}** * **{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ{*}**

[التوبة: 76-78].

وهناك نوع آخر من سوء الخلق والنفاق يتصف به أناس لا يسلم أحد من عيبهم وهمزهم ولمزهم في جميع الأحوال، فيسخرون ممن يتصدق بالكثير ويقولون عنه مراء، ويسخرون ممن يتصدق بالقليل من المال من الفقراء أو ممن لا يملك الكثير ليتصدق به فيقولون: الله غني عن قليله! وما أكثر ما نجد حولنا أمثال هؤلاء. فكان لذنبهم الكبير هذا جزاء كبير، وهو عدم المغفرة حتى ولو استغفر لهم رسول الله ﷺ فلن يقبل الله أن يغفر لهم، وحرمهم من الهداية والمغفرة لعظيم ذنبهم وبشاعته، ولأن هذا التصرف يدل على كفر مستقر في قلوبهم مستتر عن الناس وظاهر لرب العباد. وكم هم كثر من يفعلون هذا في عصرنا هذا فتجد الناس الآن يسخرون بعضهم من بعض ولا يشعرون بعِظَم ذنبهم ولا يعرفون عقوبته، ولا يدركون أن الله لن يغفره لهم، وأن هذا الذنب بلغ من الكبر أن ساواه الله بالكفر. وعنهم حدثنا الله تعالى فقال: **{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ**

أَلِيمٌ} * **{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}** [التوبة: 79–80].

أما النوع الثالث والمتفشي كثيراً فهو في أشخاص يظنون أنهم ظُلِموا في هذه الحياة، ولم يأخذوا فيها ما يستحقون من نِعَم الله؛ فإن أعطاهم الله رضوا وإن لم يُعطهم سخطوا عليه ووصفوه بعدم العدل أي الظلم، حاشى لله أن يَظلِم وإن كان أقدر على الظلم، ولكنه لا يرضاه، لا لنفسه ولا لعباده، سبحانه وتعالى عما يصفون. ولهؤلاء أقول: انظروا كيف يعلمنا الله جل وعلا الأدب معه ومع رسوله الكريم من خلال هذه الآية **{وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ}** [التوبة: 59]. فبداية علينا القبول بما رزقنا الله والرضا به ثم التوكل عليه وحده والطلب منه وحده لزيادة الرزق بعد الأخذ بالأسباب. هذا هو الموقف الصحيح لمن يكون إيمانه صادقاً وسليماً، ولمن يفهم معنى الإيمان والتوكل على الله، وعدم اللجوء لغير الله واستجداء العطاء من غيره والتخلي عن عزّة النفس، فيتذلّل لأي إنسان كي يعطيه، في حين أن القدرة على تلبية حاجاتنا إن أراد البشر أم لم يريدوا هي لله وحده.

هذا الأدب مع الله يهذب في نفوسنا سوْرة الغضب التي يصنعها الشيطان في قلوبنا لينتزع منها الرضا بقضاء الله ويزرع مكانه الغضب على الحياة والأقدار، والشعور بالظلم واتهام الله ضمنياً بذلك، وحاشاه، فهو أعدل من حكم، ولكن الحكمة مما أعطاه الله لنا أم لم يُعطه تبقى مخفية علينا، لا نعلمها لقصور قدراتنا، ولكن الله قد علمها وقدّرها لنا. وإن كانت الأرزاق قليلة فليدعُ المؤمن ربه كما جاء في الآية الكريمة، ثم ليعمل الإنسان بأسباب زيادة الرزق، وليتلمّس ما يحجب توفيق الله له، من ذنب أو تقصير تجاه الله أو الوالدين، أو من له عليه حق فقصّر بأداء حقه.

وأود الإشارة في هذا الحديث النبوي الشريف إلى الصدقة، حيث قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد إنما هي أوساخ الناس» رواه مسلم. فالصدقة لا تحل لغني عنها أو لوجود من هو أحوج منه إليها حتى ولو رضي هو بأخذها ولم يُبال بأنها أوساخ الناس التي يطهّرون بها أموالهم وأنفسهم من الذنوب، فلا يأخذها إلا المضطر إليها اضطراراً كبيراً **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...}** [التوبة: 103]. فالصدقة تغسل الإنسان من ذنوبه، ولكن بعض الناس لا يبالي أو لا يعلم ذلك فيأخذها رغم عدم حاجته لها لكونها شيء يُقدم له بلا مقابل، وهذ خطأ ويدل على قلة الوعي، فهو بذلك يحرم غيره من ذوي الحاجة لها منها.

أود هنا أن أُشير إلى من يكنزون أموالهم فيُعاقبون عليها، والكنز هو كل مال لا تُؤدى زكاته، فالله جعل الزكاة طهارة للمال ولصاحبه. فمن لا يخرجون الزكاة ولا ينفقون من أموالهم على أهلهم وأنفسهم عند حاجتهم لها كي يكنزونها، فهم آثمون أيضاً. أما ما فاض عن الحاجة وما بقي من المال بعد تأدية الزكاة فليس في حرزه بأس. فهو ما يورث للولد من المال ولا يُعتبر كنزاً {... **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** [التوبة: 34].

أما عن أفضل ما يكنز الإنسان فهو الزوجة الصالحة، التي إذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته. وخير كلمات يكنزها الإنسان ما كان يقوله سيدنا محمد ﷺ: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات، اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلباً سليماً وأسألك لساناً صادقاً وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك علام الغيوب». هدانا الله وإياكم إلى صالح الأعمال، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه.

آية ومعنى في أسباب الانتحار

يتحدث الناس في الغرب كثيراً عن الانتحار وكأنه بات نهاية مألوفة ومنطقية لكثير من حالات الاكتئاب واليأس، ولكن ما الذي أوصل الناس إلى مثل هذه الحالات والتي باتت كثيرة ومتفشية في مجتمعاتنا الشرقية أيضاً؟

يحدث اليأس عندما يفقد الإنسان الأمل من أن يضع حداً لظلم تعرض له، أو عجز عن تغيير واقع مؤلم، أو ضعف، أو مرض، أو مصيبة لم يتحملها عقله، أو فراغ في روحه يولده فقدان الإيمان بكل شيء. عندها يفقد الإنسان الثقة بمن حوله ولا يدرك بأن هناك رباً يُعبد في السماء، يمكنه أن يساعده وينتشله مما أصابه، وينصره ويستعيد له حقه، وأنه يبلوه ليختبر صبره وإيمانه به. ولا يدرك أن الله الذي خلقه سيبقى معه لأنه يحبه.

فقدان الإيمان بوجود الله وبالثواب والعقاب اللذين يُجازى بهما الناس في الدنيا والآخرة – من عمل خيراً فخير ومن عمل شراً فشر – وبأن ما أعطاه الله له أو أخذه منه هو لحكمة يريدها الله ولا يعلمها غيره.. فقد الإيمان هذا يولّد الإحساس بالوحدة والعجز، ويظن الإنسان عندها بأنه وحيد في هذا العالم ومكروه، فلا أحد يحبه أو يهتم به أو يساعده على التخلص من بؤسه. عندها تسود قلبه الوحشة والوحدة وينعدم اليقين بالخلاص فينهار ويصبح فريسة الاكتئاب الذي يوصله إلى الانتحار.

إن الإيمان بالله هو الذي يعطي الإنسان القوة ليحتمل الألم والمعاناة. فالإنسان المؤمن بوجود الله وبقدرته لا ييأس ولا يكتئب ولا ينهار، لأن إيمانه بوجود الله وقربه منه وتلمس نفحاته، من خلال ممارسته لشعائر هذا الدين من صلاة ودعاء، يشفي روحه ويقوي عزيمته ويشعره بوجود الله معه، فيتيقن من أن الله سيساعده. وهذا الإيمان هو الذي يبعد عن الإنسان المؤمن فكرة الانتحار

لحرمتها في جميع الأديان السماوية، ولأن هذا الإيمان الرائع بالخالق وعدله وإنصافه ورحمته ومساعدته لنا، يحمينا من السقوط في هذه الهوة السحيقة من ظلمة الوحدة واللاإيمان والضياع فيها. فشعور المؤمن بوجود ربه معه ومساندته له، تؤنسه وتبعد عنه الشعور بالوحدة واليأس، وإدراكه بأن هذه الحياة إنما هي اختبار لعزيمته وإيمانه وصبره يعطيه الأمل بأن أي أزمة مهما اشتدت فلها أجل ولها حل عند الله ومعرفة لسبب وجوده – ألا وهو عبادة الله – تحميه. فالصلاة وتلاوة كتاب الله تشفيان الروح من كل مرض، والروح تمرض أيضاً كما يمرض الجسد، ودواؤها في الإيمان وترياقها العبادة، وأي نوع منها هو دواء يبعد وساوس النفس ويبعث شعوراً جميلاً بالراحة والطمأنينة فيختفي اليأس.

كيف تحدث القرآن عن ذلك؟ وكيف أخبرنا بأن اليأس من نصرة الله وإعانته وعدله في الدنيا والآخرة وإنكار وجوده توصل الإنسان إلى الانتحار؟ إنه في قول الله تعالى: **{مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ}** [الحج: 15].

فقد أشار الله جل وعلا إلى أن اليأس من نصرة الله ستوصل الإنسان إلى التفكير في الانتحار كانتقام من شدة الغيظ أو كحل للتحرر من أي عذاب. هكذا يفكر من فقد إيمانه بعدل الله وقدرته فليمدد {... **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ**...} أي بحبل وليتعلق به ثم ليقطعه فيسقط ويرتطم بالأرض ويموت فهل تراه يشفي غلّه وغضبه وسخطه من قضاء الله له. وهل يحل قتله لنفسه مشاكله فتنتهي معاناته؟ بالطبع لا لأنه سيجد عذاب الله له على إزهاق روحه بانتظاره. فقد جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ: «من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردّى في نار جهنم يتردّى فيها خالداً مخلّداً فيها أبداً، ومن تحسّى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً».

هذا عقاب من فقد إيمانه بالله وقدرته ورحمته. أسأل الله لي ولكم الرضا بقضاء الله وأن يلهمنا الصبر عند الابتلاء والشكر عند النعم ونسأله الأنس بقربه.

الوحدة نعمة أم نقمة؟

هناك شريحة كبيرة من الناس تملك الكثير من وقت الفراغ وتشعر بالكثير من الوحدة، فتبدأ بالتململ والتذمر، ثم تبدأ نوبات من الغضب غير المبرر، وإن طالت وحدتها تدخل مرحلة الاكتئاب، وتبدأ التفكير بالموت ثم تتمناه. لهذا يستخدمون السجن الإفرادي كجزاء نفسي مضاعف يؤذي ويؤلم أكثر من السجن مع أشخاص آخرين. ولكن حتى لو سجن الجسد بالوحدة لكن لا أحد يستطيع أن يسجن الروح، وإن فُرضت على الإنسان وحدته وأجبرته على الابتعاد عن الناس والبقاء وحيداً لفترات طويلة تُضجر النفس وتجعل الملل يتسلّل إليها، لكن روحه تستطيع أن تحلّق من خلال العبادات. فعندما يضيع الإنسان في الفراغ يلجأ العقل إلى أشياء يُسلي فيها النفس وما أكثر التسالي في هذا الزمان؛ النت والفضائيات وغيرها. ولكن الحقيقة التي تغيب عن كثير من الناس هي أننا في وحدتنا نتلقى دعوة من الله عَزّ وَجلّ لمجالسته والتكلم معه «بالدعاء» وسماع كلامه «القرآن» والوقوف بين يديه «بالصلاة» والتفكير فيه وبمعاني آياته وبما حولنا «التفكّر». **{... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** [يونس: 24].

والوحدة تشبه إلى حدٍّ كبير الاعتكاف، ولكن في الاعتكاف تكون الرغبة والنية في هذه العبادة لله والتفرغ لمجالسته بإرادة الإنسان ولا يكون مجبراً على القيام بها. لكن إن وجدنا الوقت حتى وإن فُرض علينا ثم نوينا مرافقة الله تعالى فيه نكون قد حصلنا على الثواب والرفقة بإذن الله. لكن هل يدعنا الشيطان ننعم بهذه الصحبة؟ بالتأكيد لا. سوف يذكرنا بأشياء أردنا عملها منذ زمن، وسيشغلنا بأشياء تشدنا ويُلهينا بأشياء نحب عملها وتُسعدنا كي نبقى برفقته بدل رفقة الرحمن، ولكن الخيار دائماً يعود إلينا **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...}** [البقرة: 186].

لذلك نجد كثيراً من الناس يهربون من هذا التحدي ومن الوحدة فيحاولون إحاطة أنفسهم بالكثير من الناس والأشغال يملؤون فيها الفراغ. وبالعكس نجد فئة أخرى من الناس يجاهدون ليجدوا القليل من الوقت ليخلوا به مع أنفسهم ومع خالقهم لتصفو النفس وترتقي الروح ولتضع عنها أثقالها وهمومها ثم تعود لنشاطها أقوى من ذي قبل.

إن كثيراً من الناس مغبونون في نعمتَي الصحة والفراغ، كما جاء في الحديث الشريف عن ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» رواه البخاري. فإن وجدت نفسك وحيداً ولديك وقت فراغ فأنت في نعمة يجب أن تستغلها، ففكّر جيداً في من سيكون جليسك فيها.

ما هي خطوات الشيطان ومداخله؟

في كثير من الأحيان قد نفعل أمراً ونعلم في قرارة أنفسنا بأن فيه قدراً بسيطاً من الحرام. ويقول أحدنا لنفسه: لا بأس، أنا أفضل من غيري، فغيري يفعل ما هو أكثر حرمة مما أفعل أنا.

الحقيقة إن الصوت الذي حدثك ليس صوتك، وإنما هو صوت الشيطان يتكلم بلغتك وبصوت يشبه صوتك الداخلي فتحسبه أنت. والحقيقة الأهم هي أن الشيطان يتحدث إليك ليبسط الذنب ويدخل على قلبك من مدخل تصغير الذنوب وتحقيرها أمام ذنوب أكبر منها ليسَهل عليك المعصية، وليدعوك فتخطو خطوة ثانية صغيرة من خطواتها، حتى تصل إليها وتقع في الحرام دون أن تشعر بتدرج الأمر. ولهذا حذرنا الله تبارك وتعالى من خطوات الشيطان في أربع آيات. قال تعالى: **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}** [البقرة: 208]. وهذه دعوة لاتباع دين الإسلام بكل شرائعه والانتهاء عما نهى الله عنه، وهذا ما يحاول الشيطان جرنا إليه أي الإتيان بما حرمه الله كي نؤذي أنفسنا. وهذا شرع العدو لعدوه، والشيطان عدو ظاهر العداء بيّن الكره للإنسان فيحاول جره إلى ما يؤذيه بشتى الطرق **{يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}** [البقرة: 168] **{وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}** [الأنعام: 142] والحمولة هي الإبل والخيل والبقر والفرش هي الأنعام. وهذه دعوة أخرى إلى التمتع بنعم الله مما أحل لنا وعدم اتباع خطوات الشيطان ووساوسه بالبخل الذي يدفع الإنسان إلى تحريم ما أحل الله له كما فعل المشركون. أو أن يدعونا الشيطان إلى أكل الطيبات بمال حرام كما يفعل كثير من الناس بدعوى الفقر. ولا يعلمون بأن الرزق مكتوب للعبد ولكنه هو من يختار هل يناله بالحلال أم بالحرام. ولأن هذه الذنوب الصغيرة التي نحقرها قد تقودنا إلى ذنوب أكبر تدخلنا

النار، أجارنا الله منها وعافانا من اتباعها، حذرنا الله تبارك وتعالى أكثر من مرة من هذه الخطوات **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [النور: 21]. ولنجعل الصورة أوضح نأخذ مثالاً بعض الناس الذين يحبون النظر إلى المحرمات أو يكذبون أو يبخلون أو يسيئون لمن حولهم ويقولون الفاحش من القول وما تتكره النفس ويحسبون أن هذه من صغائر الذنوب ولا يشعرون بأنهم يتدرجون بها إلى المعصية، وإن عاتبتهم قالوا: نحن أفضل من غيرنا، انظروا إلى من هم أسوأ منا خُلقاً وأكثر منا بخلاً وتقتيراً وأشد كذباً فهناك من يصنع المعصية ويزني ويكذب ولا يبالي. ولا يشعرون بأنهم بالقيام بمثل هذه المقارنات يسيرون على خُطى الشيطان الذي يستدرجهم ليقعوا في الحرام، ويقترفوا الكبائر التي لم يتصوروا يوماً أن يفعلوها، لكنه يستدرجهم إليها عبر تجزئتها إلى أخطاء صغيرة يمكن غض الطرف عنها حتى يقعوا في المعصية ويصبحوا ربما أسوأ ممن ضربوا بهم مثلاً.

فالكذب قد يقودهم إلى دمارهم وعدم ثقة الناس بهم، والبخل قد يقتلهم ويدعوهم ليقتروا على أنفسهم فيحرموها مما أحل الله لها خاصة إن لم يقاوموه ويعالجوه بالتصدّق، وسوء الخلق سوف يسجنهم في سجن الوحدة وينفر الناس منهم ويقودهم إلى الفاحش من القول والعمل، والنظر إلى الحرام قد يوصلهم إلى الزنا. هكذا تكون مداخل الشيطان الذي يستدرج الناس بها إلى المعصية كثيرة جداً.

إنه يجعلنا نقارن ذنوبنا بمن هم أكثر ذنوباً وفجوراً منا فيجعل قدوتنا أشخاصاً أسوأ منا فنمشي على دربهم. والصحيح أن نقارن أنفسنا بمن هم أفضل منا كي نحسّن أنفسنا، خاصة عندما نتحدث عن الذنوب، فيجب أن نبحث عمّن هم أتقى منا ونتلمّس خطاهم كي نلحق بهم وقد نسبقهم بالإحسان إن وفقنا الله إليه، لا أن نبحث عن أهل الذنوب وذوي الأخلاق السيئة ونقارن أنفسنا بهم.

أما عندما لا نشعر بنعم الله فيجب أن نبحث عن أصحاب البلاء ممن ابتلاهم ربهم بالأمراض والمعاصي كي نحمد الله على ما أنعم به علينا، ونحاول التمتع بهذه النعم بدل أن نسخط لحرماننا من بعضها، ونجعل أنفسنا ممن لا يشكر الله، وعدم شكر الناس يولّد عدم شكر الله على ما أعطانا من النعم، وهذا أيضاً مدخل من مداخل الشيطان أخبرنا الله عنه وحذرنا في قوله تعالى: **{ثُمَّ لآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}**

[الأعراف: 17]. وقد جاء في تفسير هذه الآية عن ابن عباس إن الشيطان يشككنا في آخرتنا ويرغبنا في الدنيا ويحببنا بها ويشبه علينا أمور ديننا ويشككنا في بعضها حتى يجعلنا نشتهي المعاصي ويصدنا عن الخير ويحسن لنا الشر، ولكنه لا يستطيع أن يأتينا من فوقنا لأنه لا يستطيع أن يحول بيننا وبين رحمة ربنا **{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [إبراهيم: 22].

تكررت التحذيرات وكثرت مداخل الشيطان، ولولا فضل الله الذي رزقنا التوبة لنطهر بها قلوبنا ونزكي بها أنفسنا من الشرك والفجور والدنس وسوء الخلق والسخط وعدم شكر الله، لما حصَل أحد لنفسه زكاة ولا خير، ولكن الله يهدي من يشاء ويُضل من يشاء وهو عالم بمن يستحق منهم الهدى أو الضلال. وقد تعوّذ رسول الله من الشيطان فقال: «اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»، حديث صحيح.

الصلة بالله

هل تعلم ما هي عقوبة الابتعاد عن الله وإهمال التواصل معه بصلاة أو دعاء أو ذكر أو قراءة قرآن؟ إن عقوبة نسيان ذكر الله هي أن يسلّط الله على من ابتعد عن ذكره شيطاناً فيكون معه قريناً يتسلّط عليه ولا يتركه. وكلما كان بين خيارين صح أو خطأ، يسد في وجهه طريق الصواب ويصعّبه، ويزين له طريق المعصية ويسهّله، ويصغر الذنب في نظره حتى يجعله يظن أنه بكل ما يفعل من أخطاء فهو على طريق الهداية والحق والصواب. **{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} * {وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} * {حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ}** [الزخرف: 36-38].

وهنا تكمن فظاعة الأمر! فإن تُخطئ وتعرف في قرارة نفسك أن ما فعلته خطأ، هنا تكون على الدرب الصحيح ولكنك زللت وأخطأت فتستغفر وتتوب ويعفو الله عنك لأنه هيأ لك أسباب التوبة وألهمك الاستغفار. **{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}** [هود: 3]. أما أن ترتكب المعاصي والذنوب وتبقى مقتنعاً بأنك لم تفعل شيئاً خاطئاً وبأنك على حق فيما فعلت ولديك أعذارك وأسبابك، عندها لن تشعر بالندم وستبقى مصراً ومستمراً في طريق الخطأ، وستستمر بالإساءة إلى نفسك ومن حولك حتى تهلك لأنك لم تستغفر وأصررت وتماديت وضميرك مرتاح، فأنت بنظر نفسك على حق وعلى طريق الصواب. **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [آل عمران: 135] فالإصرار على الخطأ ذنب أيضاً.

وكأني أرى أن علاقتنا بربنا تبارك وتعالى هي أيضاً تحتاج إلى أن نغذيها بالتواصل مع الله بشتى الطرائق، أي بكل العبادات، حتى تستشعر من خلال تلك العبادات التي يوفّقنا الله لفعلها رضا الله، أو غضبه فإن لم توفق لعمل طاعة فلا بد أنك أذنبت، فحرمك الله بذنبك من عمل الطاعة. فكلما دعوت الله أن يوفقك إلى الخير والصواب وأكثرت من ذكره في سرّك وعلانيتك وتمسكت به فلن يفلتك ولن يسلّط عليك مثل هذا القرين السيئ فيضلك عن ذكر الله. وهكذا تكون العبادات والأعمال الصالحة التي يوفقنا الله لفعلها صلة تربطنا بالله وتدلنا على الحق بطريق غير مباشر، فتستشعر قلوبنا رضا الله أو سخطه وتبعد عنا وساوس الشياطين من الجن والإنس التي تضللنا. فلنستهدِ بنور الله بدل أن نتعذر بأعذار يختلقها لنا شيطاننا أو قريننا ونبرر بها لأنفسنا ولمن حولنا أخطاءنا **{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً}** * **{الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}** [الكهف: 103–104].

فأنت بحسن عبادتك وتواصلك الدائم مع الله عَزّ وَجلّ بالدعاء والتسبيح وقراءة القرآن والنوافل ومناجاة الله، بها جميعاً تكون ممن آمنهم الله وحفظهم من تسلط الشياطين عليهم وتضليلهم له **{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}** [الحجر: 42]. لا أقول إننا سنصبح معصومين عن الخطأ، بل ما أقوله العكس، سنبقى بشراً نخطئ ونصيب لكننا سنحظى بحماية من الرحمن كي لا يضللنا قرين من الشياطين فنضل ونشقى. فمن المهم أن نشعر بالندم إن أخطأنا، والأهم أن نعلم أن ما فعلناه كان خطأ، ومن رحمة الله أنه قد يبعث لنا شخصاً يخبرنا أو ينبهنا إلى خطئنا، فإن انتبهنا نجونا باستغفارنا وبمحاولتنا لتصحيح الخطأ مع من أخطأنا بحقه وإلا فإن ذاك القرين يصدنا عن الحق فنمضي بخطئنا كالعميان بضمير مرتاح ونحسب أنفسنا مهتدين فنزداد ضلالاً، وهذا من أروع ما علمت. لقد جعلتني هذه الآية أفهم كثيرين ممن حولي، وعرفت سبب تمسكهم بمواقفهم وتصرفاتهم الخاطئة لأنهم يظنون أنهم على حق، لذلك لا نجدهم نادمين عليها. ومن هذه الآية تعلمت أن علينا أن نعذر هؤلاء وندعو لأنفسنا ولهم بالهداية وبالقرب من الله أكثر. فالتمسك بصلتنا بالله هو الطريق الوحيد كي لا نضيع في متاهات الحياة.

باب الخروج من الضيق

عندما نعلق في دائرة من الضيق، ونعجز عن الخروج منها، ويتمكن اليأس منا نفكّر ونتساءل عن سبب انحباسنا فيها وعن طريقة الخروج والخلاص منها، وعن سر عجزنا عن إيجاد سبيل للخروج. لا بد أن هناك سبباً لوقوعنا فيها أصلاً. نعم دائماً يكون هنالك سبب وتكون هناك حكمة، ولكننا في معظم الحالات لا نراها لأنها لا تكون واضحة. والسبب في ذلك أننا نحمل رسالة في هذه الحياة يجب أن نكملها في كل مرحلة من مراحل حياتنا حتى يسعنا أن ننتقل إلى المرحلة التي تليها فلا نستطيع أن نتخطاها ولا يسعنا تجاهلها. وعجزنا عن الخروج منها هو ما يقربنا من إيجاد المفتاح الذي يفتح لنا الباب للخروج منها. **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ...}** [المؤمنون: 96].

ربما إن فعلنا أي شيء نبتغي به وجه الله، وساعدنا به غيرنا، كأن نسامح أحداً أخطأ في حقنا أو نساعد شخصاً بحاجة لنا، فإننا بذلك نفتح باباً كان مغلقاً لشخص آخر عالق في دائرة ضيق، وبمساعدتنا له لا بد أن يفتح الله لنا بابنا لنمر وننتقل إلى المرحلة التالية وإلى اختبار آخر ربما يكون أصعب. فالحياة أوجدنا الله فيها لنكون عوناً لغيرنا من البشر، أو ربما لنكون يداً تصفعهم وتدمرهم وتتخلى عنهم وتدفع بهم إلى الهاوية، أو تمسك بهم وتساعدهم وتبني بداخلهم قيمة للمعروف والتعاون، وتنتشلهم مما هم فيه من ضيق. هكذا يختبر الله قلوبنا ويمتحنها ليظهر معدنها وجوهرها فيميز الخبيث من الطيب بالرغم من أنه هو الأعلم بما يختلج في الصدور والسرائر والضمائر **{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...}** [الأنفال: 37] **{وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}** [آل عمران: 141] **{... وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** [آل عمران: 154].

لذلك يجب أن نفكر جيداً في خياراتنا وفي ما نستطيع أن نُقدم لغيرنا لنساعده فيساعدنا الله ويعطينا ما أردنا كما جاء في الحديث الشريف: «لا يزال الله في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه» رواه زيد بن ثابت ورواته ثقات. فقضاء حوائج العباد يجعل حاجاتنا عند الله تبارك وتعالى ليقضيها لنا. اللهم أجرِ الخير على يدي واجعلني مباركاً أينما كنت.

العلم والحكمة

كلما ازداد عمر الإنسان ازداد حكمة، وكلما ازداد حكمة ازداد حباً للتفكير والوحدة، لأن معتقداته وأفكاره وتجاربه في الحياة تجعله مختلفاً عمن حوله. فالحكمة التي نكتسبها في حياتنا تحمل في طياتها حقائق غير واضحة للجميع، يراها كل الناس لأنها مبنية على تجاربنا الخاصة وعلى حقائق مخفية، فيما علمناه وتعلمناه في هذه الحياة. وعلمنا بالأشياء يجعلنا ممن يعلم، ومن يعلم ليس كمن لا يعلم **{... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ...}** [الزمر: 9].

وحسب مقدار علمنا قد يتبنى أحدنا موقفاً ثم تتكشف له بعض الأمور، وعلمه بها ربما يجعله يغير موقفه إلى النقيض. وهذا ليس دليل ضعف في شخصيته، بل هو على العكس دليل حكمة. وخير مثال سيدنا موسى عليه السّلام في سورة الكهف عندما أرشده الله إلى مرافقة الخضر عليه السّلام ليتعلم منه الحكمة. فكان موسى عليه السّلام يحكم على تصرفات الخضر بما يرى من ظاهر الأمور فيخطئ مع أنه نبي ولكنه يخطئ لأنه لا يعلم وقد علم الخضر عليه السّلام بصعوبة الأمر فهناك مسافة كبيرة بين أن تعلم وأن لا تعلم. فقال لسيدنا موسى عليه السّلام: **{وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}** [الكهف: 68] ثم قال له: **{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}** [الكهف: 72].

فبينما كانت تصرفات سيدنا الخضر الذي وصفه الله عَزّ وَجلّ بأنه **{... عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}** [الكهف: 65]. هي تصرفات صحيحة مبنية على أشياء علم بها الخضر من الله عَزّ وَجلّ ولم يعلم بها موسى عليه السّلام. وكذلك الأمر بالنسبة إلى لقمان الحكيم فبمجرد كونه حكيماً فقد أعطاه الله الشرف العظيم وذكره في كتابه وسمى سورة كاملة

باسمه. فالحكمة تعني أن تعلم ثم تستخدم علمك لتبتكر طرقاً تحل بها ما يواجهك من مشاكل وتجد لها أفضل الحلول ثم تتأنّى في الحكم على الأمور ولا تتسرع وتتّبع الظاهر منها وهي أن تفكر وتبحث عن الحقيقة المختبئة خلف الأحداث الظاهرة. فالفرق بين الخطأ والصواب هو العلم بالحقيقة، وقليل من الناس من يبحث عن الحقيقة فكثيرون منا يحكمون على الأمور من ظاهرها ويتعجلون بالحكم دون تحرٍّ للحقيقة فيقعون في الخطأ. ولهذا نجد كثيرين منا يقفون في الجانب الخطأ ويظنون أنفسهم على حق ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

هكذا يختلف الناس ويشتد الخلاف بينهم خاصة عندما لا يحاولون تقبل الرأي الآخر أو احترامه ولا يحاولون أن يروا الأمور من الجانب الآخر، يكتفون بما علموا ولا يفتحون عيونهم وقلوبهم لمعرفة الحقيقة كاملة، ويكتفون بمعرفة جزء منها فقط. فتصبح أحكامهم مشوشة ومواقفهم خاطئة ويزداد الأمر سوءاً عندما يحاول الطرف الآخر أن يكشف لهم بقية الصورة فيرفضون النظر لأنهم لا يريدون الاعتراف بأنهم كانوا على خطأ ويعتبرون أنفسهم أكبر من أن يخطئوا وأكبر من أن يسمعوا أو يتعلموا فهم يعرفون كل شيء ولا يخطئون، لهذا نجدهم يرفضون الحوار أو النقاش، وعقولهم متحجرة لا يمكن تغييرها. اللَّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وأنرْ قلوبنا بنور الإيمان كي نرى الأشياء ببصيرتك على حقيقتها.

كيف الحال؟

يمر بك أحدهم وأنت في الطريق ويسألك سؤالاً بسيطاً: كيف الحال يا صديقي؟ فتشعر بإحساس غريب. تحس أنك لا تجد كلمات لتصف له بها أشياء كثيرة مررت بها، آلاماً مزمنة قديمة ومتجددة وانكسارات وأحزاناً وأياماً ثقيلة مررت بها، فتعجز الكلمات وتؤثر الرحيل؛ فالكلمات لا تستطيع أن تحمل كل هذه المعاناة بين أحرفها الصغيرة.

تبتسم ابتسامة بسيطة ملونة بألوان حزينة، لا تملك أحرفاً وكلمات بل مجرد إحساس عميق بأن الإجابة لا يمكنها العبور وأن حالك لا يعلم به إلا خالق الوجود **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** [ق: 16]. ولا تجد كلمة تقولها أفضل من الحمد لله، الله لا يحتاج إلى كلمات كي يعرف كيف حالك فعلمه محيط بجميع الأحوال وقربه منك يجاوز قرب الدم الجاري في عروقك إليك. وأن تحمد الله في كل الظروف والأحوال فهذا دليل عميق على رضاك بقضاء الله وتعافي إيمانك وقلبك من كل الأمراض **{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ...}** [لقمان: 12].

وبتلك الحكمة التي أعطاك الله إياها تحمد الله فتشعر بصغر معاناتك أمام معاناة غيرك، وبعظمة نعم الله عليك مع فقدك لبعض النعم. لكن يبقى لك الكثير لتحمد الله عليه بالقول والفعل بما في ذلك فعل الطاعات تقرباً لله وشكراً له على نعمه، فيداوي حمد الله جراحك وتشعر بالراحة أكثر بكثير من أن تحكي أحزانك ويشفق الناس لحالك.

روى البخاري عن النبي ﷺ أنه كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه فقيل له: أتقوم وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»، حديث صحيح.

فصلاة القيام هي من طرائق حمد الله عَزّ وَجلّ بالأفعال، فحمد الله باللسان يحتاج إلى عمل صالح يرفعه إلى الله عَزّ وَجلّ كقيام الليل.

أعاننا الله على القيام بها وتقبّلها منا، وجعلنا من عباده القليلين الشاكرين.

هل تستطيع أن تغفر لمن أساء إليك؟

أمرنا الله في كتابه العزيز أن نغفر حتى لمن لا يؤمن بيوم الحساب **{قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [الجاثية: 14]. ولكن كثيراً ما نطلب من الناس أن يغفروا، فنجدهم غير قادرين على ذلك؛ كأن نطلب من زوجة أن تسامح زوجها على إساءته لها، فتقول: لا أستطيع. ولكن لماذا لا يستطيع بعض الناس أن يسامحوا أو يغفروا؟

وما هو نادر الحدوث أن يحسن الإنسان لمن أساء إليه دون أن يعتذر المسيء أو دون أن يظهر الندم، فلماذا لا يستطيع بعض الناس أن يسامحوا ويغفروا لمن أساء إليهم؟

أخيراً وجدت الجواب في حلقات الشيخ الحبيب علي الجفري عندما تحدث عن النفس الأمارة بالسوء، التي تحول دون أن يتصرف الإنسان بالخلق الذي أمره به رب العباد أو أن يتحلى به، وتمنعه من أن يغفر لأخيه المسلم، بل وتأتيه بالخواطر التي قد توقعه في شرك الخطيئة وتزيده غرقاً في الذنوب حتى تختم ذنوبه على قلبه وتعميه عن الصواب والحق **{... فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}** [الحج: 46]. فيخسر الكثير من محبيه ممن أخطأوا معه، فلا يخلو إنسان من الخطأ لأننا مجبولون عليه.

والنفس تحتاج أن نزكيها بأخلاق الرحمن التي أنزلها في كتابه وقد علّمنا في القرآن أنه قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها أي النفس. ولكن كيف سنجبرها على فعل الصواب إن تمردت وأبت؟ هذا ما شرحه الشيخ، جزاه الله كل خير، حيث شبّه النفس الأمارة بالسوء كأنها فرس لا تطيع سائسها فماذا يفعل بها السائس؟ يزيد من ساعات عملها ويقلل من علفها ومن فترات راحتها حتى تتعلم أن تنصاع لأوامره. ولكن كيف نطبق ذلك على أنفسنا الأمّارة بالسوء؟ نقوم بزيادة العمل على

طاعة الله في العبادات كالصيام كل اثنين وخميس والاستزادة من صلاة النافلة ومن قيام الليل والضحى، بالإضافة إلى تقليل ساعات الراحة واللهو.

وهكذا نكون قد زدنا العمل وقللنا الطعام والمتع الأخرى، وكأننا نقول عن الإكثار من الصيام والمداومة على صلاة الليل وإطالة الوقوف بين يدي الله عَزّ وَجلّ إنه يهذب النفس ويزكيها وهذا هو المعنى العملي للآية الكريمة: **{اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}** [العنكبوت: 45]. ولذلك نجد أن من يصلي قيام الليل ويصوم كثيرا يكون أقدر على الغفران في حين يعجز الكثيرون عنه. والعلم عند الله.

طهارة الروح

عندما تراودنا الذكريات وتعود بنا إلى أكثر اللحظات إيلاماً وحزناً فنبتسم ونهز رؤوسنا ثم نضحك، وعندما نتأكد أننا نسينا الألم وهزمنا ضعفنا نكون قد تصالحنا مع أنفسنا، وشفيت روحنا من الظلم الذي آذاها، وتغلبنا على ذاك الشعور البغيض بالكره وانتصرنا على تلك الرغبة الدنيئة بالانتقام.

هناك أرواح تتعذب تحت سيوف الظلم، تجلدها الرغبة بالانتقام، ويكبلها العجز عنه، فتقبع في ظلام الحقد طوال حياتها؛ تتعذب ولا تجد سبيلها للتحرر منه. أما أن تبتسم وتسامح بعد كل معاناتك فذاك هو الانتصار. فمسامحتك من ظلمك تطهر روحك وتشعرك بالراحة والطمأنينة والسلام والسعادة لأنك استطعت أن تتحرر من الحزن والحقد. وهذا يعني أن من ظلمك لم يستطع أن يشوه قلبك ويسجن روحك في أقبية الحقد المظلمة، ولم يستطع أن ينجس بظلمه وسواد قلبه ذاك الطهر الساكن في روحك.

كثيرون ممن عانوا من الظلم يحاولون الانتقام، وهذا ما يشوه روحهم ويبقيهم داخل ألمهم سجناء. لذلك فقد جعل الله لمن يعفُ ويغفر الأجر الكبير، لأنه استطاع أن يهزم ألمه، وأن يتحرر من حقده، لأن الحقد والانتقام يغطيان بسوادهما القلوب ويشوهان الروح، فكافأه الله بالغفران لذنوبه كرماً منه ولأن الجزاء دائماً هو من جنس العمل **{... وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [النور: 22]. لهذا نجد آيات كثيرة تختتم بصفتين عظيمتين لله عَزّ وَجلّ وهما العفو والمغفرة، بالإضافة إلى الرحمة كي نتذكّرها ونجعل صفات الله عَزّ وَجلّ قدوتنا فنتخلّق بخلقه العظيم.

للقلب قدرات خارقة

تلك القبضة الصغيرة من اللحم الأحمر، عضلة تنبض بقدرة الله وتتوقف بقَدَر من الله، هل يمكن أن يتخيل عقل كم تحوي من المعجزات؟ لا نتكلم هنا عن الاكتشافات العلمية وما عرفته عنها، وإنما عن قدرات خارقة وضعها خالقها فيها تتجاوز حدود ما هو معروف عن القلب، وبأنه المحرك الأساسي لجسم الإنسان، مع كونه موضع الإحساس؛ فكل المشاعر تسند إليه من حزن أو فرح، طيبة أو قسوة، ألم أو حب أو كره.

ليس هذا فقط ولكننا نتحدث عن قدرات وضعها الله في القلب البشري لا يعترف بوجودها العلم وكثير، من الناس، أو على الأقل لا يعترفون بمسؤولية القلب عنها، لأن القليلين فقط هم الذين يتمتعون بها، وهم أناس توجد فيهم صفة مُلزمة مرافقة لها ألا وهي الإيمان بالله، فالإيمان أيضاً موضعه القلب. و«إذا صلح القلب صلح الجسد كله» وكأن القلب هو نقطة مركزية أو حد فاصل بين الخبث والفضيلة، وبين الحق والباطل، وبين الخير والشر، ويتم من خلاله الحكم على الإنسان كله. ومن هنا ننطلق للتحدث عن الصفات التي خص الله بها قلوب هؤلاء المؤمنين. حدثنا مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

لقد وضع الله عَزّ وَجلّ في القلب قدرات خارقة منها القدرة على الإبصار، مع أن البصر حاسة مرتبطة بالعين عادة، ولكن عندما نسبها الله إلى القلب رفعه وأعطاه ميزة جديدة تُسمى «بصيرة» يرى من خلالها المؤمن ما لا تستطيع عين غيره أن تراه. وتحدث عن ذلك في مواضع عدة في القرآن الكريم.. كقوله تعالى: **{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ**

آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]. وأعطانا الله تعالى هذه القدرة على رؤية الأشياء بقلوبنا من خلال تلاوة القرآن الكريم وتلمّس معانيه والالتزام بما جاء فيه. فمن أجمل صفات القرآن الكريم أنه بصائر: **{هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}** [الجاثية: 20] **{قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا...}** [الأنعام: 104]. وهذه البصائر موجودة في القرآن المنزّل على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم خاصة أنه لم يذكر وجودها في غيره من الكتب السماوية **{... قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** [الأعراف: 203].

فهذه البصائر إذاً خاصة بالمؤمنين القارئين للقرآن الكريم وكذلك الرحمة. هؤلاء وصفهم العلم الحديث أنهم أشخاص متناغمون مع أجسادهم، فهم أشخاص لهم وعي جسدي أكثر من غيرهم، فيميلون لاتباع حدسهم أكثر! وقد بدأ العلم من خلال تجاربه باكتشاف حقيقة مهمة وهي أن العقل ليس فقط عضواً موجوداً في الدماغ.

لكن الله تعالى تحدث عمن حُرم من هذه الكرامة، التي أكرم الله بها القلوب المؤمنة، وهي تشمل نعمة السمع والبصر والفهم أي الإدراك أو الجزء من الإدراك الخاص بالقلب «البصيرة»، حيث يتلقاه القلب من ربه فيصبح قادراً على اتخاذ القرارات الصائبة بقلبه وليس بعقله! وإضافة الإدراك الموجود في العقل ونسبه إلى القلب إنما هو لإعلاء شأن القلب أكثر، وإشارة إلى الإمكانات الموجودة فيه أكثر، وخاصة قلب المؤمن. لكن بدأ العلم الآن يتلمس هذه الحقيقة ولو أنه لم يعلنها بعد، وهذا ما تحدث عنه العالم إيبانز الذي يعمل في جامعة بيونس أيرس في الأرجنتين حيث يعتقد أن دور القلب في الإدراك يفوق دور العقل لأن القلب هو موطن الروح حسب افتراضات أرسطو. لكن هذه الاعتقادات هي حقيقة عند الله عز وجل قد أخبرنا عنها في قوله: **{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...}**.

فبالرغم من وجود نعمة البصر والسمع والعقل عند بعض الناس من الإنس والجن أيضاً، إلا أن بعضاً من هؤلاء لا يملكون الإدراك بوجود الله وقدرته في قلوبهم، فنجدهم عاجزين عن اليقين بوجود الله وقدرته. وتصبح قلوبهم مجردة من كل هذه الصفات والقدرات الموجودة في قلوب المؤمنين. ونجد ذلك في قوله تعالى: **{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ**

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: 179].

وقد يستغرب بعض الناس أن يُنسب الفهم إلى القلب مع أن المتعارف عليه في العلم أن الفهم والتفكير ينسب إلى العقل مركز الإدراك. من هنا نجد أن هناك علوماً في القرآن الكريم لم يتوصل العلم إليها بعد فهي أعلى منه وعلمها عند الله. وعلَّمها الله في الكتاب لرسوله الكريم صلوات الله عليه وسلامه منذ ألف وأربعمئة سنة ولم يدركها العلم بعد. فبالرغم من الفتوح العلمية الأخيرة والمبهرة إلا أنه ما زال هناك مزيد لم يُكتشف بعد. **{... نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}** [يوسف: 76]. ومما يجدر بنا ذكره أن العلماء بدأوا يلاحظون أن قطع عصب القلب وتغييره أثناء عمليات تغيير القلب وأن هذا الدمار الذي يلحق بعصب القلب يمكنه أن يقطع بعض الإشارات الداخلية المرسلة من القلب إلى الدماغ، وهو ما يؤثر على عملية الإدراك لدى هؤلاء الأشخاص.

لهذا يجب ألا نلوم بعض الناس الذين لا يرون الحقيقة لأن قلوبهم لا تبصر ما يبصره غيرهم، وعيونهم لا ترى ما يراه غيرهم من نعم الله وأفضاله وقدرته على الخلق، فيقابلوننا بعيون تنظر لكنها لا ترى وقلوب لا تبصر. اللهم أكرم قلوبنا بمعرفتك وحبك وحسن عبادتك **{وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ}** * **{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** [يونس: 43–44] **{وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ}** [الأعراف: 198] وقد أخبرنا رسولنا الكريم عليه صلوات الله وسلامه أن ننتبه لفراسة المؤمن: «اتق فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» حدث به الألباني.

فهذه القدرات الخفية تُمكّن القلب المؤمن من إدراك أمور مخفية، وقد بدأ العلم الحديث بملاحظة الاتصال بين العقل والقلب أو بين إحساس الإنسان الواعي وتنبئه بما سيحصل له من خير أو شر، عن طريق ملاحظة التغييرات التي طرأت على الأشخاص الذين تم زرع قلب جديد في أجسادهم. وكتب عن هذا الموضوع الصحفي العلمي في قناة (بي بي سي) ديفيد روبنسون حيث نقل عن طبيب المخ والأعصاب أوجستين إيبانز تكهن الأخير بأن تغيير قلب الإنسان ربما يغير عقل هذا الإنسان. كما بدأ العلماء مؤخراً في اكتشاف أن هذه العضلة الصغيرة تسهم بشكل كبير

في تكوين الحدس على نحو واقعي للغاية حتى إن الإنسان يشعر بخيانة زوجه من خلال هذا الإحساس أو الحدس.

لكن العلم الحديث لم يستطع معرفة سبب ظهورها عند بعض الناس دون غيرهم وردّ ذلك إلى أن بعض الأشخاص لديهم تواصل بين عقلهم وقلبهم، وهذه القدرات مكّنت هؤلاء الأشخاص من اتخاذ بعض القرارات الصائبة التي يمليها عليهم قلبهم وليس عقلهم، مما يثبت أن القلب يرسل إشارات دقيقة إلى العقل عن بعض الأمور. وهذا ما حدّثنا عنه سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ ذاك النبي الأمي علم ما توصل إليه العلم الآن وتكلم عنه منذ ألف وأربعمئة عام وقال في الحديث الشريف: «استفتِ نفسك واستفتِ قلبك. البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك» حديث حسن بإسناد صحيح على شرط مسلم.

وهذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن؛ فمن آمن يكون على اتصال أكبر مع قلبه ويتلقى إشاراته **{بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ}** [القيامة: 14] فالإنسان شاهد على نفسه وأعضائه تشهد عليه ولو أنكر أو ادّعى الأعذار، لكنه في قلبه يعلم بالحقيقة ويؤنبه ضميره عليها. والقلب قد يخضع ولا ينكر على الإنسان فعل الحرام، لكن يحصل هذا إن مات القلب وقتلته الذنوب. وذكر الله تعالى أن الذنوب هي التي تحجب هذه الرؤية الخارقة عن القلب، خاصة إن لم يستغفر الإنسان؛ فالاستغفار هو الدواء الذي ينظف قلوبنا من الذنوب التي تعميها وقد تقتلها إذا ازدادت فتختمها بخاتم النفاق – أعوذ بالله منه – وتحرم الإنسان، ولو كان مسلماً، من هذه النعمة كالكذب حيث يمرض القلب فيستبدل النفاق بالإيمان. قال تعالى: **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}** [التوبة: 77]، فلنحرص على نظافة قلوبنا من الذنوب بالاستغفار **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [آل عمران: 135].

وإن لم نستغفر تصير الذنوب كغطاء أسود يغطي القلب ويمنع عنه النور، ويسمّى الران، فيموت القلب من كثرة الذنوب ويعيش الإنسان بقلب ميت لا يستطيع أن ينهاه عن الحرام ولا يدلّه إلى الخير. وهذه صفة نجدها لدى الأشخاص أصحاب القلوب القاسية أو الميتة **{كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [المطففين: 14]. أي ما كانوا يكسبون من الآثام **{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...}** [البقرة: 74]. فقسوة القلب هي مرض من أمراض القلب،

وكانت بمثابة عقاب من الله تعالى على الشرك به وعدم إطاعته. كما حصل مع بني إسرائيل إذ ابتلاهم ربهم بقسوة القلب جزاء استكبارهم وعصيانهم لله.

أخيراً أقول إن القلب هو موضع التقوى التي يتقي الإنسان بها الشر وغضب الله وسخطه، والتي تجعله يعامل الناس بأحسن مما يعاملونه فلا يظلم ولا يؤذي ولا يغتاب بل ويحسن إليهم ولو أساؤوا إليه. لذلك قال الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «التقوى ها هنا، التقوى ها هنا» أي في القلب. حدّث به الألباني فإسناده حسن.

ما سر قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام «خيركم خيركم لأهله»؟

ميز الله عَزّ وَجلّ الرجل بالسلطة والقوة والقدرة على التحكم في المرأة سواء أكانت زوجته أو أخته أو أمه. ولكن جعل الله لأمه عليه رضى وغضباً حتى لا تكون السلطة مطلقة عليها، وأما ابنته فجعل له حناناً عليها وعطفاً يرقق قلبه عليها، أما أخته فجعل لها أباً أو زوجاً يوقفه إن طغى عليها. أما زوجته المسكينة فليس لها إلا الله ولياً ونصيراً وقد أعطاه الله السلطة المطلقة عليها وترك له العنان، ولم يجعل له منازعاً في السلطة عليها. حتى والداها لا يجدان عليها سبيلاً إلا بعد إرادة زوجها، فلو شاء منعها عنهما أيضاً وعليها الطاعة وهو يحمل وزر قطع رحمها. ولكن لماذا لم يترك لها الله أي سلاح؟!

الجواب هو ليختبرها وزوجها معاً. يختبرها الله بفرض الطاعة عليها لزوجها، وصبرها عليه، وحسن تعاملها معه في كل الأحوال؛ في الغضب والرضا، في الظلم والعدل، في الحنان والقسوة. أما هو فله الاختبار الأصعب، فالسلطة المطلقة تغري صاحبها بالطغيان فينسيه الشيطان حساب ربه العسير ليطغى ويقسو عليها أو ليظلمها **{... الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}** [الجاثية: 34] **{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** [ق: 18]. فيختبره الله بهذه السلطة ليرى هل سيظلمها ويكون زوجاً قاسياً ظالماً مسيئاً؟ أم سيكون لها حضناً دافئاً حنوناً؟

حين اختبر الله ذا القرنين قال له: إما أن تظلم وإما أن تعدل. فاختار العدل لحسن خلقة وطيب نفسه **{... قُلْنَا ياذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً}** [الكهف: 86]. وكذلك

الزوج إن كان طيب النفس حسن الخلق تقياً يخاف الله ربه فلن يقبل أن يظلم زوجته أو يسيء إليها. وهذا بالضبط معنى قول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «خيركم خيركم لأهله» رواه الترمذي عن عائشة. ولأن خير النفس وشرها أكثر ما يظهر أمام من هو أضعف منها، لذلك فالزوجة هي التي تعرف زوجها أكثر من أمه وأبيه، بحكم معاشرتها لهذا الزوج ولكونها تحت سلطته. فإن كان سيئ الخُلق فأول من سيتأذى من سوء خلقه زوجته لأنها أضعف منه وهو متحكم فيها، ولا يخاف منها فتظهر حقيقته دون تجميل ولا تدليس ولا تظاهر ولا رياء مهما يخفِها قبل الزواج فستظهر بعد أن يصبح الزوج هو الحاكم المطلق. فليتق الله كل زوج في زوجته وليتذكر أنه إن أحسن إليها فإن الله وليها وسيحسن إليه، وإن ظلمها وآذاها فإن الله سيسلّط عليه من يظلمه ويؤذيه، وإن ضيّق عليها وبخل فإن الله سيضيّق عليه رزقه. فليكن لها كما يحب أن يكون الله له لأن وليها الله وعملاً بوصية الرسول الكريم ﷺ في حجة الوداع «استوصوا بالنساء خيراً» رواه البخاري.

بين السخط والرضا

عندما يُهديك أحد هدية تشكره، ولكن إن لم تُعجبك الهدية، ولم تكن مثلما أردت فهل ستقول لمن أهداك إياها: لماذا لم تُحضر هدية أفضل، أغلى، أجمل، أهذا ما جادت به نفسك؟

بالطبع لا، فالأخلاق والأدب يمنعانك من ذلك. وكذلك الأمر إن طلبت من الله شيئاً فأعطاك إياه أقل مما تمنيت، وربما يكون مختلفاً تماماً عما أردت. فهل ستقول له: يا رب لا أريد هذا بل أريد ذاك؟ بالطبع لا، فلن تتنكر لعطاء ربك بل سترضى وتقنع بما أعطاك الله، وتشكره على ما آتاك وتعود لتطلب منه الأفضل بطريقة أفضل. هذا الأدب الذي يتحدث عنه القرآن الكريم ويُعلمنا إياه في سياق آياته الكريمة لأن إحساسنا بعدم الرضا بقضاء الله وعطائه ولو كتمناه في قلوبنا سيعلمه الله الذي يعلم السر وأخفى. فالله لا يحتاج أن تتكلم ليعلم ما في قلبك ويجول في خاطرك. وسيكون سخطك في قلبك طريقاً يتسلل به النفاق إلى قلبك فيوجب غضب الله عليك.

كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يُقسم الصدقات فجاءه رجل سخط على الله فتسلّل النفاق إلى قلبه فقال للرسول الكريم: اعدلْ فأنت لم تعدل! فرد عليه الرسول ﷺ: ويلك فمن يعدل عليك بعدي؟

وهنا نزلت الآية الكريمة لتُعلم ذلك المنافق، ومثله كثيرون يتصرفون مثله، الأدب في الطلب من الله ورسوله: **{وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}** * **{وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ}** [التوبة: 58–59].

تضمنت الآية أدباً عظيماً مرفوقاً بسر شريف بين كلماتها ومعانيها، حيثُ جمعت بين الرضا بعطاء الله والتوكل عليه وطلب المزيد بالرغبة إليه وحده، وهي بمثابة دعاء عظيم الفضل عند الله يُستحب الدعاء به عند الحاجة والطلب به من الله تعالى لكل من لم ترضَ نفسه بما قسمه الله له وأراد مزيداً.. فليس من الخطأ طلب المزيد ولكن الطريقة التي تطلب به هي الأهم. فيا لعظمة هذا القرآن الذي يُعلمنا كيف نُفكر وكيف نطلب وكيف نرضى بما آتانا الله وكيف نتأدب بالطلب خصوصاً مع الله عَزّ وَجلّ, ومن تأدب مع الله تأدب مع عباده. جاء عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ارضَ بما قسمه الله لك تكن من أغنى الناس». صدق رسول الله ﷺ فالرضا هو سر السعادة الذي يبحث عنه كثيرون ولا يجدونه.

حتى النعمة هي اختبار
أدب التحدث عن نعم الله ورزقه

الإسلام ثوب فضفاض كبير يلبسه كثيرون، أما الإيمان الذي يقبع في الصدور فلا يعلم به إلا الله ولا يناله إلا من عمل له. ولكن هناك علامات تدلنا عليه.

أن تعزو كل خير فعلته أو أصابك بالفضل إلى الله فذلك دليل على فهمك لمعنى الإسلام. أما أن تتحدث عن إنجازاتك في هذه الحياة ونجاحاتك، وكأنك أنت المتصرف الوحيد فيها، وتدّعي الفضل لذكائك في اجتياز مصاعبها، فهذا دليل ضعف إيمانك. فلولا أن وفقك الله لما استطعت أن تحقق من نجاحاتك شيئاً، وإنما كان ما حدث معك في حياتك هو مجرد فتنة أي اختبار لإيمانك. فإن ظننت أنك أنت من فعل كل شيء، ونسيت القدرة الإلهية التي ساعدتك، فقد فشلت في اختبارك، وأعمتك ثقتك بنفسك وإعجابك بها عن إدراك وجود يد الله الخفية التي ساعدتك مراراً وتكراراً على اجتياز المصاعب، وسخّرت لك أشخاصاً ليساعدوك، وألهمتك أفكاراً ناجحة كي يرفعك الله بها. ولكنك جعلت نفسك شريكاً لله في قدرته وفضله فضللت عن سبيل الله. انظر كيف تكلم الله عنك وكيف وصفك **{فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}** [الزمر: 49] **{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}** [فصلت: 51]. فمن ظن أنه بذكائه فقط أو بماله أو بسلطته استطاع تحقيق نجاحاته فلن يستطيع أي من هذه الأشياء أن تنجيه من حساب الله.

الحسرة

عشْ حياتك واسعد بما آتاك الله قبل أن ينتهي العمر فجأة، وتجد نفسك في حفرة صغيرة ينهشك الندم على كلمة طيبة وددت لو قلتها لمن تحب، وعلى عمرةٍ مكفِّرةٍ أجّلتها لغد لم يتسنّ له أن يأتي، أو على ضحكة عذبة نسيت أن ترسمها على ثغر يتيم بائس، أو على لحظة سعادة فاتتك وأنت منشغل عنها بأمور تافهة ومشاكل عابرة وقلب أسود يبكي على أشياء لم يُكتب له أن يحصل عليها وينسى ملايين النعم التي أهدرها دون جدوى، ودون أن يستغلها بالخير أو أن يحمد الله عليها، حتى أنه نسي أن يتنعم بها جحوداً بفضل الله وسخطاً زرعه في قلبه الشيطان كي لا يحمد الله، ليبقى قلبه متعلقاً بما لم يحصل عليه في هذه الحياة ولتبقى الحسرة تنهش إيمانه وتسليمه بقضاء الله وقدره وما قسمه له في دنياه. لا تترك الحسرة في قلبك تضنيه إلا على صلاة انشغلت عنها ولم تصلّها، أو على آية وددت أن تحفظها ثم ألهتك مشاغلك عنها، أو على وقت ضاع لم تذكر الله فيه، {**أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**} [الزمر: 56]. فتندم على غضب تركته يعميك حتى لا تصطلح مع من هجرته حتى نسيك، عن رحم قطعتها، عن شخص جرحته عن إحسان نسيت أن تهديه.

لا تدع الروتين اليومي يقتل فيك أحلاماً عاشت في داخلك عمراً وهي تتمنى الظهور، حتى نسيت أنك قد أحببتها ونامت لياليها بين الجفون. لا تتركه ينسيك أناساً أحببتهم كل يوم ولكنك نسيت أن تخبرهم يوماً كم تقدر وجودهم في حياتك وكم تحبهم، وأناساً خاصمتهم ونسيت أن تسامحهم، وأناساً جرحتهم ونسيت أن تطيب خاطرهم، وأناساً قصرت في حقهم أو ظلمتهم ونسيت أن تطلب العفو منهم، وذنوباً مع الله أذنبت بها ونسيت أن تستغفره عليها، ونعماً نسيت أن تشكره عليها، وعمراً مضى ونسيت أنه شارف على الانتهاء. فاغتنم لحظات العمر القليلة الباقية لأنك لا

تزال تستطيع أن تفعل ما تشاء، وما زال في القلم مداد، وما زال الملكان يكتبان فاكتب به ما تشاء، وتذكر أنك غداً واقف بين يدي الحق عَزّ وَجلّ وقبل أن يسألك سيسقط لحم وجهك خجلاً من ذنوبك وخشية من هيبته. عندها ستصحو وستتمنى لو تعود إلى الدنيا لتصلح ما أفسدت، ولتعمل عملاً صالحاً يجعل لحظة اللقاء مع الرحمن أجمل، عندما تنظر إليه وتراه ضاحكاً مستبشراً ينظر إليك بعين الرضا إن شاء الله. لا تدع الشيطان يلهيك بأمانيه بأن يطول العمر ولا ينتهي **{يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا}** [النساء: 120].

لا تقل: ما زال هناك وقت. فالعمر قصير، ولا تنتبه كم عشت من الأيام عندما يرحل حاملاً أمانيك، وجسداً مسجّى في صندوق صغير، لا ينظر إلى من حمله هل هو كبير أو صغير، هل أنهى ما كان يفعل أم لم ينهه. تصرف كما لو أنك تراه واقفاً ينتظرك أن تنهي فرضاً أو تسقي شجرة أو تمحو سيئة بحسنة أو تجبر بكلمة طيبة خاطر كسير أو تتلهى بأشياء تافهة لا تنفع ولا تفيد. أسرع وانتبه من غفلتك فالحياة حلوة تستحق أن تعيشها وتسعد بها وتسعد من حولك بأيامها المعدودة فالعمر قصير.

لا وقت تضيعه بالحزن على ما فات والقلق مما سيأتي. اترك لمن بعدك ذكرى جميلة عنك، وتذكر أنك في هذه الدنيا عابر سبيل، إن مكثت اليوم فغداً راحل بالتأكيد. عن عبد الله ابن عمر قال: أخذ الرسول بمنكبي فقال: «كنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك. حديث صحيح **{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}** [القصص: 77].

الطاعة للزوج

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلامه: «من صلّت خمسها وصامت شهرها وأحصنت فرجها وأطاعت زوجها فُتحت لها أبواب الجنة تدخل من أيها شاءت» حدثه الألباني.

قرن رسول الله ﷺ طاعة الزوج مع الصلوات الخمس وهي من أهم فروض الله عَزّ وَجلّ على المسلمين وهي ركن من أركان الإسلام فلماذا قُرنت طاعة الزوج مع الصلاة والصيام؟

لأننا عندما نطيع الله في أمر نطيعه لقناعتنا بأنه ربٌّ يُعبد، أما الزوج فيجب على الزوجة أن تطيعه وهي تراه في كثير من الأحيان إنساناً مثلها يخطئ ويصيب، حتى أن بعض الزوجات يجدن أزواجهن غير جديرين بالطاعة والاحترام إما لأن زوجها كثير الأخطاء وإما لأنه بعيد عن الله أو بسبب قسوته عليها أو ظلمه لها. فتبتعد الزوجة عن طاعة زوجها وقد تنسى في كثير من الأحيان بأنها مطالبة بها في الأصل، وأنها سبب يرافق صلاتها في إدخالها الجنة.

ولكن الحكمة تكمن هنا فبقدر صعوبة الطاعة للزوج وبقدر استحالة أن يكون كل الأزواج بالقدر نفسه من الحكمة وحسن الخلق ورجاحة العقل بقدر ما تتفاوت الزوجات باهتمامهن بتقديم الطاعة للزوج وقدرتهن عليها أو حتى اقتناعهن بوجوبها. ومن هذا الاختلاف ومن هذا التفاوت تنشأ الصعوبة في إتمام الطاعة له، فالزوجة أقرب الناس إلى الزوج، وأكثر الناس تعرضاً لظلمه وبطشه لأنه يملك السلطة عليها ويعرف نقاط ضعفها، ومن هنا تصبح الطاعة أمراً يحمل أشكالاً وصعوبات عدة.

فإن كانت الزوجة تحترم زوجها وتثق برجاحة عقله وقدرته على تسيير أمور العائلة تصبح الطاعة أمراً سهلاً وتلقائياً. أما إن لم يملك رجاحة العقل فقد تجد نفسها مجبرة على الاصطدام به لتصحيح المسار كي لا تتضرر العائلة. من جهة أخرى قد نجد أحد الأزواج يطلب من زوجته طلباً سهلاً وبسيطاً فتمتنع عن تنفيذه لعدم رغبتها في ذلك – كانتظاره لتناول العشاء معه – وهذا الخطأ منها ناجم عن غفلة بأهمية حصولها على رضاه. ولو أنها تجاريه وتستعمل ذكاءها فتشعره بأنها تأكل معه وإن لم تفعل فتجلس وتتحدث معه وتأكل القليل لكسبت الكثير من رضا ربها بإطاعتها لزوجها ومجاملتها له. فهو أولى بمجاملتها من الأصدقاء، وهذه الطاعة جوهرة في يدها، فلتشكر ربها لأنه يسّرها عليها ولم يجعلها صعبة أو كريهة كغيرها من النساء اللاتي يعانين الأمرين في مسايرة أزواجهن واحتمال طلباتهم التي يصعب على النفس تقبلها أو حتى تحمل قسوتهم. وهناك أسباب كثيرة تدعو الزوجة لمسايرة زوجها ففي بعض الحالات نجد الزوجة تضغط كثيراً على نفسها في مسايرة زوجها ليس بسبب رغبتها برضا الله فقط، أو إرضاءً لزوجها، ولكن من أجل أن تبقى العائلة ولا يهدم البيت وكي لا يضيع الأولاد، وغيرها من الأسباب.

فإن كان الزوج لا يحمل صفات اليسر في الطبع وسهولة المطلب وحكمة التصرف ضاعت هيبته في نفس زوجته وثقتها به، وهنا تصبح الطاعة صعبة، وتزداد صعوبتها كلما كان الطلب صعباً على نفس الزوجة القيام به أو تكرهه أو تراه خطأ. ولو أن الزوجة تذكّرت الجهاد في سبيل الله كم هو صعب على النفس، كأن تضحي الأم بولدها ليجاهد في سبيل الله ويُقتَل، وكم هو صعب رد النفس الأمارة بالسوء عن الشهوات، لهانت عليها نفسها وألمها واستودعت الله ثواب صبرها وجهادها، فكل ألم يشعر به الإنسان يؤجر عليه طالما أنه في سبيل الله ورضاه وطاعته. ويكون تكفيراً عن ذنوب أو ثواباً ودرجات لها، فالجنة طريقها صعب وهي محفوفة بالمكاره أي محاطة بكل ما يكرهه الإنسان. قال الله تعالى: **{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}** [فصلت: 35].

ولكن هل يعني ذلك أن تتنازل عن حقوقها وتترك المطالبة بها كي لا يغضب منها؟ بالتأكيد لا، ولكن يجب اتباع لين الكلام، وحسن التصرف، واللباقة في طلبها. لو أنها في كثير من الأحيان تضطر للتنازل عن بعض حقوقها كي تسير مركب الحياة.

لكن هل يعني هذا أن تطيع الزوجة زوجها طاعة عمياء دون أن تحكّم عقلها في ما يجوز له أن يطلب منها وفي ما لا يجوز؟ بالطبع لا! كأن يطلب منها عمل عمليات تجميل فيها خطورة على حياتها أو أشياء محرمة شرعاً؟ هنا يحق لها أن ترفض وتقول: لا لن أفعل. فالطاعة العمياء قد تودي بصاحبها إلى الهلاك، وهي محرمة لغير الله حتى وإن كانت للزوج. ففي كل آيات الطلاق جاء لفظ {... **إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**...} [البقرة: 230] **{... إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ...}** [البقرة: 229].

وهذا دليل على أن الطاعة للزوج يجب أن تكون محفوفة بحدود ما أحل الله وما حرّمه وليست طاعة لا نهائية. **{... تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** [البقرة: 229]. لكن كلما ازدادت الطاعة صعوبة عظُم الثواب، وهنا يأتي دور الإيمان الراسخ في قلب الزوجة فهو الذي يساعدها لتضغط على نفسها وتتقبل زوجها بأخطائه وعثراته وتحاول إرضاءه ولو كان هذا على حساب سعادتها أو راحتها. بل إنها قد تشعر بالسعادة لرؤيته سعيداً، فالسعادة دائماً تكون في العطاء والبذل لا في الأنانية والأخذ، ولا يكون العطاء دائماً لمن يستحق، ولكن الإنسان ذا النفس الكريمة – والكرم ليس مقصوراً على المال فقط بل الكرم يكون بالأخلاق أيضاً – هو من يعطي دون انتظار الأجر ممن أعطاه، بل الأجر دائماً من الله وحده ولا يجوز أن نعطي لمن نظنه جديراً بالعطاء فقط أو لمن يستطيع أن يرد لنا العطاء بمثله أو أفضل بل العطاء يكون أيضاً لمن لا نحب، والأكثر من ذلك أن نعطي لمن أساء إلينا وخاصة إلى إنسان مقرب منا كالزوج. فأن تحسن لهذا الإنسان الذي يسيء لك فهذا هو الإحسان – أعلى درجات الإيمان – لأنك تعطي فقط حباً بالله وكما أمرك الله وليس لمن تحب أنت فقط، أو لمن يرد لك الإحسان. وأعلم كم يكون هذا صعباً في كثير من المواقف. ولكن يقيننا بأننا سنؤجر هو الذي يقوينا على الطاعة وعلى العطاء، والله وحده من ييسر لنا العطاء ويثيبنا عليها.

ولو أن الزوجة جرّبت أن تتجاوز غضبها على زوجها الذي أساء إليها وأن تحسن إليه، لشعرت عندها بقوة عظيمة، وبأنها انتصرت على نفسها الأمّارة بالسوء، وتحررت من غضبها، وارتقت إلى أن لمست عنان السماء بحسن خلقها، وأرضت ربها، فيتملكها الشعور بالرضا وتغمر السعادة قلبها لأنها استطاعت أن تفعل ما لا يستطيع كثيرون فعله؛ أي الإحسان إلى الزوج رغم

إساءته إليها. ولكن للأسف ما عاد الناس في هذا الزمان يهتمون لأمر انتظار الأجر من الله، فكل إنسان يريد أن يأخذ حقوقه كاملة في الدنيا.

أقول لكل زوجة: كم ستشعرين بالسعادة عندما يخطئ زوجك في حقك ثم تسامحينه وتردين عليه بإحسان وكوب من القهوة كي تهدأ نفساكما، فيشعر بأنه صغير بغضبه وأنت كبيرة بحلمك وإن لم يفهم ويشعر فالله شاهد يسمع ويرى. وطالما أن ما يطلبه الزوج في حدود طاعة الله وما أحله فلا عذر عن عدم القيام به إلا عدم القدرة على ذلك. وهذه الطاعة هي أمر خصّ الله به الزوجة ووعدها بدخول الجنة إن نفّذته، فإن طلب منها الله جلّ وعلا أمراً فيجب عليها أن تنفّذه بطيب نفس مهما صعب عليها أو خالف إرادتها.

ولكن بعض الزوجات قد ترفض أي طلب من زوجها لمجرد أنها لا ترغب بفعله أو لأنه لا يهمها أن يكون راضياً عنها أو ساخطاً، دون أن تهتم حتى للطريقة التي ترفض بها أو دون اهتمام لمشاعره. فهناك زوجة ترفض لمجرّد الرفض، وأخرى تبحث عن عذر، وأخرى تناقش الموضوع وتبحث إمكانيات تحقيقه وتجعله يلمس الصعوبات وتساعده على التغلب عليها. وعندها فقط يشعر بأنها تسانده وتفهمه وتحترم رغباته حتى ولو لم تفعل ما يريد.

ولكن إن أمكن للزوجة إقناع زوجها بالعدول عما يطلب مما تكره القيام به تكون فقد فازت بسعادة الدنيا وثواب الآخرة، ولكن قد لا تستطيع. وهذا يعود أولاً لذكاء الزوجة وأسلوبها وحنكتها في إقناع زوجها بوجهة نظرها أو حتى إرضائه بأمر أسهل على نفسها القيام به. ويعود الأمر لاستجابة الزوج وعدم عناده وتشبثه برأيه. وقد يحتاج هذا الأمر إلى سنوات من الشد والجذب والتحاور والمسايرة حتى تثبت له خطأه ولكي تصل الزوجة إلى المرحلة التي تمكّنها من إقناع زوجها بعدم إجبارها على فعل الأشياء التي لا تحب القيام بها. وقد يعينها الله عليه كثواب عجّله الله لها في الدنيا، وإن لم تتمكن أبداً من إقناع زوجها بالعدول عن رأيه عندها تزداد وطأة الطاعة صعوبة وألما في النفس ويكون الله عزّ وجلّ قد أخّر لها الثواب إلى يوم القيامة حيث توفّى كل نفس أجرها وإن ظُلمت يعاد إليها حقها.

وهنا أود التنويه إلى أن الغريب في الأمر أن كثيراً من الزوجات اللاتي يضحين كثيراً في سبيل إرضاء الزوج يكون هو في معظم الأحوال غير راضٍ عنها، وكثير التذمر منها، والتحدث عن عيوبها أمام الناس مع أنه يفرض عليها قوانين صعبة وشروطاً قاسية وتضحياتٍ كثيرة كي تستمر

الحياة بينهما، وبرغم كل ذلك نجده غير راضٍ. ولهذا، ومن حكمة الله قال رسوله الكريم ﷺ: من (أطاعت زوجها) وليس أرضته حتى يرضى، أي قامت بالجزء الذي تقدر عليه والذي يخصها من الجهد كي يرضى عنها، فإن لم يرضَ فحسابه عند ربه، فهي تملك إطاعته ولكنها لا تملك أن تجعله راضياً عنها فهذا بيد الله وحده.

وهنا أيضاً قد يساعدها الله ويلين قلب زوجها ويحننه عليها فتسهل الطاعة ويسهل اختبارها في هذه الحياة، وقد لا ييسر الله لها الطاعة، ولكن في الحالتين تكون قد فازت برضا ربها بدل زوجها لأنها بذلت كل جهدها لتحصل على رضاه كما أمرها الله، فهي عندئذ كالقاضي يحكم بين الناس بالحق؛ فإذا أصاب أخذ ثواب جهده وثواب عدله، وإن لم يصب، كأن يضلله أحد الطرفين فيخطئ، فينال ثواباً واحداً فقط وهو ثواب جهده في إحلال العدل في الأرض وإن كان حكمه غير عادل.

من ناحية أخرى إن طاعة الزوجة لزوجها ليست دليل انتقاص لها أو لعقلها وذكائها، وإنما هي عبادة وعدها الله على أدائها الأجر والثواب. وبهذا المفهوم الجديد يصبح تنفيذ هذه العبادة وهذا الأمر الإلهي أسهل على نفس المرأة، وتطبيقه يمنحها شعوراً بالرضا عن النفس بدل الإحساس بالظلم الذي يثير سخطها. وهكذا تسد باب الشيطان ووساوسه حين يقول لها؛ أنت أذكى من زوجك، افعلي ما ترينه صحيحاً وما يسعدك، ولا تضغطي على نفسك لتطيعيه فهو يخطئ في حقك ويجرحك فلماذا تطيعينه؟ لا تقبلي أن تلغي شخصيتك وتتخلي عن أي شيء لأجله، ولا تحاولي أن تتحاوري معه فلن يفهمك. هكذا يغلق الشيطان على كثير من الزوجات باب التفاهم ويسلبهم الأجر والثواب ويقودهم إلى التمرد على الزوج وإرادته كي ترضي نفسها وتظن بأنها بخروجها عنه ستسعد بينما هي تخسر الدنيا والأجر في الآخرة.

ولأن الحياة هي اختبار لكل إنسان فقد جعل الله له فيها صعوبات وأزمات ومشاكل تنتظر منه الصبر وحسن التصرف، ولذلك أعطى الله للإنسان القدرة على الاختيار بين أن يفعل ما يرضي لله أو أن يفعل ما يرضي نفسه وهواه. قال الله تعالى: **{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}** [الكهف: 7].

فاختبار المرأة زوجها تبيّن أنه قد يكون سهل الطبائع أو العكس. ولما رفع الله عَزّ وَجلّ الرجل على المرأة درجة مما جعله متصرفاً متحكماً في أمورها **{... وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ...}**

[البقرة: 228]. فهذا اختبار له أيضاً. فإن الله عَزّ وَجلّ عندما يعطي الملك لإنسان ويجعله متحكماً في غيره فهذا اختبار جلل له ولإيمانه، فقد أُعطي القدرة على أن يعدل أو يظلم فليتق الله ربه في ما أعطاه وقدّره، ولا ينسى أن الله يقدر عليه، قال الشاعر في الظلم:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً

فالظلم آخره يفضي إلى الندم

تنام عيناك والمظلومُ منتبه

يدعو عليك وعين الله لم تنمِ

وكثيراً ما نرى بعض الأزواج الظالمين وقد عاقبهم الله وكسر شوكتهم وأذلهم لزوجاتهم المظلومات بمرض أو غيره ليذكرهم بأن الله يقدر عليهم **{... وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}** [آل عمران: 4]. ولكن بماذا أعطي الرجل هذه الدرجة على المرأة؟ بقدرته على الإنفاق عليها **{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ...}** [النساء: 34]. قانتات أي مطيعات وطاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله وشرفه. حتى ولو كانت تستطيع أن تنفق على نفسها ولكن الله ألزمه بالإنفاق عليها. ولكن لماذا جعل الله الأمر بهذه الطريقة؟ لأن السلطة تكون مدعومة بالمال فللمال سلطة أيضاً، وأُلزم الرجل بها برغم غنى الزوجة لأنها إن أنفقت سلبت زوجها جزءاً من سلطته وانتقصتها وبدأت تحاول استعمال سلطتها الآتية من المال، فتنازع الزوج وتحاول أخذ السلطة منه ولو على نفسها. ولما كان لا بد للسفينة من ربان واحد حتى لا تغرق لذلك كان لا بد من وجود قائد واحد في العائلة كي لا تفشل. وكي لا تزول هيبة الرجل في نفس زوجته إن تركها تصرف هي على نفسها أو على البيت.

في النهاية نصيحة لكل زوجة: إن أحسنت التعامل مع زوجها بلطفها ملكت قلبه، وإن سعت لنيل حبه لا بد لها من الوصول إليه وعندها فقط تصبح الحياة أجمل. فكل رجل مهما كان قاسياً أو ظالما أو لاهياً لا بد له من قلب، وإن استطاعت زوجته أن تحصل على حبه بعمل الأشياء التي يحبها منها سواء أكانت طعاماً أو شراباً أو تجملاً أو حديثاً جميلاً أو بيتاً مرتباً أو لهفة وحسن استقبال له عند دخوله المنزل أو اهتماماً خاصاً به، عندها ستحصل على قلبه أو على الأقل على احترامه لها، وعندها ستجد حياتها قد أصبحت تحمل معاني أسمى للسعادة فحتى المعاشرة تصبح

ذات طعم مختلف لأنها حملت المتعة والحب معاً، واقترنت المشاعر الجميلة بفعل يعبّر عنها. وفي هذه الحالة فقط يصبح كل من الزوجين يسعى لإسعاد الآخر فتصبح الحياة أجمل.

نظرة خاطئة لعدة المطلقة

يتقبل الناس في مجتمعاتنا أداء العدة التي فرضها الله على المتوفى عنها زوجها، حيث تحتجب المعتدة عن الناس في بيت زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام لا يجوز لها أن تنتقل أثناءها من بيت زوجها إلى أي مكان آخر. قال الله عَزّ وَجلّ: **{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** [البقرة: 234].

أما المطلقة فيظن الكثيرون خطأً أن عدتها التي تبلغ ثلاثة قروء (أي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار) تقتصر على عدم المبيت خارج البيت أو التعرض للخطبة. لكن الحقيقة في كتاب الله وشرعه مختلفة تماماً عن الاعتقاد السائد.

فالعدة هي الأيام المعدودة التي تحصيها المرأة وتعدها بعد طلاقها من زوجها وفيها ثلاثة أمور مهمة تلتبس على الناس:

الأول: هو عدم جواز خروج المعتدة من الطلاق من بيتها الذي هو بيت زوجها، ولا يحق لأهلها أو لزوجها إخراجها منه حتى تنتهي العدة إلا لضرورة قصوى أو لثبات الزنا عليها. ولا تتضمن هذه الضرورة الذهاب للعمل لأن الله ألزم الزوج بالنفقة عليها وخدمتها بجلب ما تحتاج إليه من طعام وغيره طيلة فترة العدة، إلا في حالات خاصة كحاجتها إلى العلاج في مستشفى وما إلى ذلك، حتى وإن كان طلاقها بائناً، أي أنها تؤدي عدتها في بيت زوجها حتى وإن كانت لا ترجو العودة إليه.

الثاني: هو أنها تتزين خلال العدة وكونها لا تظهر أمام رجال من غير محارمها، فزينتها لا تظهر إلا لزوجها فهي بذلك لا تتزين بقصد التعرض للخطبة. وهذا مغاير تماماً لوضع المتوفى عنها زوجها والتي تتجنّب الزينة وصبغ الشعر وحتى العطر أثناء العدة، وذلك يتوافق مع حالة الحزن المرافقة لوفاة الزوج ولكونها معتدة.

الثالث: هو الطريقة التي يفكر بها الناس بالعدة، فكونها فُرضت على المرأة من الله عَزّ وَجلّ فهي ليست واجباً تقوم به الزوجة لزوجها! لكنها بتأديتها تقدم فرضاً من الله إلى الله عَزّ وَجلّ, وإن فسرها بعض الناس بكونها احتراماً للزواج نفسه وليس للزوج.

فغالباً ما تكون الزوجة متحاملة على الزوج عند الطلاق لأسباب كثيرة، إما لإهانة الزوج لها بضربها وإما لظلمها، فكيف ستتقبل فكرة أن تحبس نفسها في العدة بعد الطلاق من أجله؟

لكنها بذلك تفكر بطريقة مغلوطة وتظلم نفسها وتتجاهل فرضاً من الله عليها. فالعدة التي تقوم بها هي خالصة لله تعالى والتزامها بها إنما هو احترام لفرض الله عليها كالتزامها بالحجاب لكونه فرضاً من الله عليها. وعدم التزامها بأداء العدة هي وحدها ستحاسب عليه. فالعدة ليست شيئاً تقدمه لطليقها فهو لن يضره كونها قدمت هذا الفرض لربها أم لم تقدمه. وتجدر الإشارة إلى أن درجة إتقان المطلقة لعدتها والتزامها بها ترتبط مباشرة بدرجة إيمانها بالله وتقواها. لهذا أمر الله عَزّ وَجلّ في آية الطلاق بالتقوى وليذكر كل من الزوج والزوجة بحساب الله لهما إن خالفا امر الله وحدوده **{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يُخْرَجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}** [الطلاق: 1].

وبهذا تكون عدة المطلقة أشد من عدة المتوفى عنها زوجها خاصة وأنها فرض من الله يستلزم إتمامه على وجهه كباقي الفروض التي فرضها الله كالصلاة والصيام وغيرهما... وحق على المطلقة أداؤها لله وليس للزوج لأن من فرضها ويحاسب عليها هو الله عَزّ وَجلّ وليس الزوج، ولا يجوز التساهل في أدائها أو تجاوزها بحجة أن الزوج أساء للزوجة قبل الطلاق فليس له عدّة عليها. هكذا زين الشيطان للناس سوء عملهم ودفعهم لعدم الالتزام بحدود الله وشرعه **{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}** [محمد: 14].

فالعدة بالإضافة إلى كونها براءة للرحم من الحمل، هي فرصة تركها الله عَزّ وَجلّ للزوجين علهما يتراجعا عن الطلاق أو يظهر حمل الزوجة فتقرر بسببه العودة إلى زوجها. لكن ليس هذا هو السبب الوحيد الموجب للعدة، وأداؤها ليس مرتبطاً بالزوج ولا يجوز التهاون في أدائها على وجهها لأي سبب. أعاننا الله على طاعته، وتقبّل منا طاعتنا.

مفهوم جديد للصبر والصلاة

منذ كنا صغاراً علمونا إن نخاف الله بدل أن نحبه، وأن نصلي كي لا يحرقنا بالنار، لا لأننا نتصل بها بالله، وإن لم نصلِّ لا نكون مسلمين. وكبرنا على كلمات كثير من رجال الدين الذين يرهّبون ولا يرغّبون. لكن عندما قرأت في تفسير القرآن الكريم تعلمت أن أطيع الله لأني أحبه ولأنه رب يستحق العبادة، وتعلمت أن الصلاة هي ملاذنا عندما تقسو علينا الحياة، نلتجئ بها إلى حصن الله المنيع، ونعترف بين يديه بأنه الوحيد القادر على شفاء أجسادنا من كل ألم، وأرواحنا من كل فقد لحبيب أو قريب أو صديق. وتعلمت أن الصلاة هي يد الله التي يمدها لنا كل ليلة حين ينادينا، كي يحقق أمانينا، كأني أسمعه كل ليلة يقول: هل من صاحب حاجة فألبيه؟ هل من داعٍ فأجيبه؟ فمن صلى القيام ودعا، أجابه الله تبارك وتعالى وحقق مساعيه. فالصلاة بمفهومها الجديد هي الطريقة التي نتلمس بها رحمة الله، ونتعرض عن طريقها إلى نفحات الله الرحمانية لتداوي قلوبنا وأرواحنا وأجسادنا في لحظة واحدة حين يقول لها الله «كُنْ فيكون».

أما الصبر فلا يعني أن تصبر على مصيبة حلت بك فقط، لكن الصبر هو أن تصبر على كل ما تمنيت الحصول عليه ولم يكن مقدّراً لك أن تنعم به. وهو أن تمسك نفسك عما اشتهت وتصونها عن فعل كل ما هو حرام كالخيانة أو التمتع بإظهار المفاتن الجميلة التي أمر الله بسترها حفاظاً على نقائها وعفّتها، أو أن تمسك عن الرد على من آذاك. وهكذا يكون الصبر بنظرة أعمق له وجوه كثيرة.. في معظمها تتحكم بها أخلاق الإنسان وتربيته، وما تبقى منها يحكمه ضمير الإنسان المؤمن وإيمانه بأن كل ما حرم نفسه منه من متع الدنيا - المحرمة في الحياة الدنيا - سوف يؤتيه الله سبحانه عليها الأجر والثواب في الدنيا والآخرة. ففي الدنيا يعوضه بخير منها حلالاً، وفي الآخرة يجزيه على إمساكه عن الحرام بخيرات لا يعلم مقدارها إلا الله. وهذا ما يسمى

الصبر على المحارم التي حرمها الله، وهذا هو الجزء الأعظم والأصعب من الصبر. وهناك صبر آخر وهو الصبر على الفرائض والقيام بها والإقبال عليها برغبة، لا أن نؤديها باستثقال وتذمر في الأوقات التي يصعب أداؤها فيها كالقيام من السرير الدافئ والنوم الحالم إلى الوضوء بماء بارد ثم الوقوف للصلاة بين يدي الله، أو الصبر على الجوع والعطش لصيام يوم شديد الحرارة من أجل ثواب غامض لا يعرف ماهيته إلا الله جل وعلا.

فمن عرف هذه الحقيقة عن الصلاة وفهمها فهذا فضل من الله، والفضل الأكبر يكون لمن وفقه الله إلى القيام بها والعمل بهذه النصيحة الرائعة التي علمنا إياها رب العباد قال تعالى: **{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}** [البقرة: 45]. يقول تعالى آمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة أو بمعنى آخر استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة فأما الصبر فقيل إنه الصيام ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر. عن النبي ﷺ قال «الصوم نصف الصبر». وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصي ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة. وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنْه قال: إن الصبر صبران صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

وبمعنى آخر الصبر هو اعتراف العبد لله بما أُصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه. وقيل الصبر هو السعي لمرضاة الله باجتناب نواهيه وفعل ما يرضيه.

وأما قوله والصلاة فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، فلو اشتهت نفسك شيئاً من الحرام فأمسكت وصليت لأعانك الله بدفع شهوتك وتحويلها إلى ما هو حلال بفضله. وهذا واضح جلي في قوله تعالى **{اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}** [العنكبوت: 45].

فقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. رواه أبو داود. ومعنى فزع إليها أي هرب مما أهمه إلى الوقوف بين يدي ربه بالصلاة حتى تهدأ نفسه ويجعل الله له مما أهمه فرجاً.

ورُوي عنه ﷺ أنه مر بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له «أشكم درد» ومعناه أيوجعك بطنك! قال: نعم، قال: «قمْ فصلِّ فإن الصلاة شفاء».

وهو عكس ما نفعله نحن الآن بأن نتعذّر بألم أصابنا عن قيامنا بالصلاة، بينما هي في الحقيقة شفاء للروح والجسد. شفاء الجسد من مرض يصيبه، وشفاء الروح عند فقد شخص عزيز عليها.

فقد جاء أن ابن عباس نُعي إليه أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحّى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: **{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}** [البقرة: 45].

فالصبر والصلاة هما معونتان على رحمة الله وهما يد من الله تبارك وتعالى تمتد إلينا عندما نتألم ونحتاج إلى من يساعدنا. والضمير في قوله وإنها لكبيرة عائد إلى الصلاة أو أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك. فالاستعانة بالصبر والصلاة هي وصية من الله يعلمنا كيف نتواصل معه في لحظات ضعفنا وحاجتنا إليه. كقوله تعالى في قصة قارون **{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ}** [القصص: 80] أي لا يتلقى هذه الحكمة إلا من صبر. وما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من الناس يمرون من أمام الحكمة لكنهم لا يتلقوها، ومنهم من يعقلها ولا يستطيع العمل بها. فشرط التلقي للحكمة هو الصبر **{... وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ}** وشرط العمل التوفيق من الله وهو الحظوة من الله – أي الاقتراب منه عَزّ وَجلّ – بأن يوفق متلقي الحكمة إلى العمل بها قال تعالى: **{وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}** * **{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}** [فصلت: 34-35]. فهذه الإشارات الربانية الرائعة والبسيطة التي يغفل عنها كثيرون وقد يعتبرها البعض غير منطقية، هي حقيقة مجربة لتخفيف الألم الجسدي والروحي، فهل من مجيب؟

وعلى كل تقدير فقوله تعالى: «وإنها لكبيرة» أي أن الصبر والصلاة مشقة ثقيلة إلا على المؤمنين حقاً أي من توقن نفسه بأنها صلة مع الله وليست مجرد حركات نحرص على القيام بتفاصيلها إلى درجة يضيع منا مغزاها ومعناها مع اهتمامنا بشكلها. فالمصدقين بما أنزل الله أو المتواضعين له والمدركين لكون الصلاة ملجأ إلى الله من هموم الدنيا ومتاعبها هم أشخاص محظوظون وموفقون إلى فهم وتلقي هذه الحقيقة الغائبة عن كثيرين غيرهم.

وهذا يشبه ما جاء في الحديث. «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه» وهكذا يصبح معنى الآية: استعينوا على مصائب الدنيا بحبس أنفسكم على طاعة الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضاء الله حتى تستكين أنفسكم وتهدأ روحكم، فهي العظيمة إقامتها إلا على من يشعرون أثناء قيامهم بها بالتواصل الحقيقي مع الله عَزّ وَجلّ. والله أعلم.

دع الفشل يصنع لك نجاحاً
والحزن يصنع لك مجداً

الفشل يطبع في داخلنا إحساساً قاتماً بالعجز والإحباط وألماً في القلب، ولكنه في الوقت ذاته يشعل فينا شعلة تقول لنا: لا أنا لست فاشلاً. فليس الفشل سيئاً بحدّ ذاته ولكن استسلامنا له هو الذي يدمّرنا؛ فمن سلب القدر منه نعمة البصر تجده يحاول تنمية بعض الحواس الأخرى ويطورها ليستطيع الاعتماد عليها في ملء الفراغ، وكذلك نحن عندما نفشل في شيء فلا بد لنا من البحث عن شيء آخر نبرع فيه لنثبت لأنفسنا ولمن حولنا أننا لسنا فاشلين وأننا نستطيع أن ننجح ولكن بشيء آخر، لأن الحياة فيها جوانب عدة شخصية وعملية وعاطفية، وقد نواجه الفشل في إحداها ولكن ذلك لا يعني أبداً أننا فاشلون في كل شيء. فلا يوجد إنسان ناجح بالمطلق وآخر فاشل بالمطلق، ولكن يجب أن نعترف بأننا أخطأنا أولاً، ثم نتعلم من أخطائنا التي سببت لنا هذا الفشل حتى نصنع من هذا الفشل مفتاحاً لباب النجاح الكبير. وهكذا نستعيد ثقتنا بأنفسنا وتكون هذه هي عتبة النجاح التي تعثرنا بها. ولكن يجب ألا نفقد الأمل أو الثقة بذواتنا وإمكاناتنا وما وهبنا الله.

وخير مثال في عصرنا ستيف جوبز وهو مؤسس شركة «أبل» أكبر شركة إلكترونيات في العالم أسسها بعد أن عجز عن إكمال دراسته الجامعية بسبب ارتفاع تكاليف الدراسة، فترك الجامعة وأسس شركة صغيرة مع صديقه كبرت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تساوي مليوني دولار. وعندها اختلف مع صديقه فدفع له نصف قيمتها وطرده منها، لكنه لم ييأس فعمل على صناعة الأفلام الثلاثية الأبعاد ونجح نجاحاً باهراً، فرجع صديقه ودفع له ثمن هذا الفكرة وعاد إلى الشركة من جديد كشريك. ففي كل مرة كان فشله دافعاً له ليبدأ من جديد ويبدع من جديد.

وفي حياة سيدنا محمد ﷺ أفضل خلق الله كثير من المواقف التي شعر فيها بالحزن والانكسار، كما حصل في عام الحزن عندما توفيت زوجته وعمه فلفه الحزن واشتد أذى المشركين له حتى خرج هارباً من مكة المكرمة إذ نبذته عشيرته وهمّت بقتله ولكن الله أيده بنصره وأعانه على الوقوف ثانية بعد كل محنة وواساه في حزنه ونصره وأعطاه مالم يعطِ أي نبي آخر ألا وهو معجزة الإسراء إلى القدس والمعراج إلى السماء ومقابلة الله عَزّ وَجلّ هناك **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الإسراء: 1] **{وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً}** [الإسراء: 76].

وقد نفقد إنساناً عزيزاً على قلوبنا وتدمرنا الخسارة فننهار، ونفقد معها القدرة على الوقوف من جديد، لأن الحزن أصبح يسكن في قلوبنا لا يفارقها، فنعجز عن التخلص منه، فهل نتركه يدمرنا؟ ماذا لو جنّدنا هذا الحزن العميق ليساعدنا على التقدم إلى الأمام. فالحزن يحمل طاقة وقدرة عجيبة إن لم نستطع أن نسيطر عليها ستدمرنا وتبعد عنا أعز أحبابنا، فقد يشفق علينا الناس في البداية ولكن إن استمر استسلامنا للحزن سينفر الناس منا، فلا أحد يستطيع أن يعيش في مدينة مدمرة. يجب أن نستخدم هذه الطاقة الهائلة من الحزن لنعيد بناء حياتنا من جديد وسيكون ما بنيناه أفضل وأعظم مما كان، فالدموع والحزن قد يصنعان إنساناً عظيماً وفي الوقت ذاته فإن العمل في أي شيء سوف يشغل تفكيرنا ويساعدنا على نسيان الألم الذي نشعر به.

لذلك أتمنى من كل إنسان لفّه الحزن لأي سبب من الأسباب أن يسيطر على الحزن الذي بداخله، وليفتح له باباً ليرحل عنه، وذلك عن طريق إيجاد شيء ما يقوم به ويسلم موهبته للحزن الذي سيحولها إلى إبداع كالرسم أو العزف أو الكتابة أو الدراسة أو حفظ القرآن، أو أي حرفة أو عمل يجده مفيداً وممتعاً، وبالتأكيد سيبرع في ما يفعل.

هل يعلم الأموات بزيارتنا قبورهم؟

أنعم الله علينا بنسيان الأشخاص الذين نعرفهم ونحبهم وسرقهم الموت من حياتنا، فغابوا عنا رغماً عنهم. لكن بالرغم من فناء أجسادهم إلا أن أرواحهم لا تفنى، فالروح لم تخلق لتموت بل خُلقت للخلود إما في الجنة وإما في النار. أما الجسد فهو الذي يفنى في القبر ثم يعيد الله بعثه يوم القيامة. وبين البداية في الدنيا والنهاية في الآخرة، ترحل الروح بعد أن تموت أجسادها وتنتقل من الجسد الذي كانت رهينة في داخله إلى عالم آخر له قوانين مختلفة يُسمى عالم البرزخ **{... وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}** [المؤمنون: 100]. فأرواح من نحب لا تزال موجودة في البرزخ – وهو حاجز ما بين الدنيا والآخرة – مقيمة في ذلك المكان تنتظر من الأحياء الباقية أرواحهم داخل أجسادهم مثلنا الدعاء لها بالعفو والغفران، فهذا ما يصلها منهم وتتنعم ببركته إلى يوم الحساب.

وقد أوصى الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ أمة الإسلام وعلمهم أن يسلّموا على الأموات إذا مروا بقبورهم سلام من يسمع ويعقل ولكن لا يستطيع أن يرد، وبعد السلام أوصى بالدعاء لهم. ووجدت ذلك موضحاً في تفسير هذه الآية الكريمة وذكرت بعض الأحاديث الواردة عن ذلك للتوضيح.

لذلك فأنا أوجه الدعوة لنفسي ولكم كي ندعو كل يوم لأمواتنا، ونجمل أموات المسلمين بدعائنا، كي نجد من يدعو لنا عندما تصبح أجسادنا في المقابر مثلهم وأرواحنا تنتظر بلهفة دعوة من مسلم أو أهل أو ولد **{إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ}** * **{وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}** [النمل: 80-81]. يقول تعالى لرسوله الكريم: كما أنك لا تستطيع أن تسمع الأموات في أجداثها، فلا يمكنك أن تسمع

كلامك الصم الذين لا يسمعون، لأنهم مدبرون عنك، فعجزك عن إسماع الصم هو كعجزك عن جعل العمي يبصرون طريق الحق لأن العمى الذي فيهم يمنعهم من الإبصار، فأنت لن تقدر على هداية العميان، وردهم عن ضلالتهم، لأن تلك الأمور لا يملك القدرة عليها إلا الله تعالى، فهو وحده بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه ولهذا قال تعالى: **{... إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}** [الروم: 53] أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: **{إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}** [الأنعام: 36] وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنْها، بهذه الآية: **{إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى...}** [النمل: 80]، على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر، بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جُيِّفوا؟

فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون».

عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه، حتى يرد».

وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيّعين له، إذا انصرفوا عنه، وقد شرّع النبي ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطَب ويفهم فيقول المسلم: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل. ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد. والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر، فروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة رضي اللَّه عنْها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده، إلا استأنس به وردّ عليه حتى يقوم».

وروي عن أبي هريرة رضي اللَّه عنْه، قال: إذا مر رجل بقبر يعرفه فسلم عليه، رد.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدري قال: رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بسنتين، فقلت: أليس قد مت؟

قال: بلى، قلت: فأين أنت؟

قال: أنا – والله – في روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة عند بكر بن عبد الله المزني، فنتلقّى أخباركم.

قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟

قال: هيهات! قد بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح.

قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟

قال: نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس.

قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟

قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته.

وقال الفضل بن الموفق: لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً، فكنت آتي قبره في كل يوم، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله، ثم إني أتيته يوماً، فبينما أنا جالس عند القبر غلبتني عيناي فنمت، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج، وكأنه قاعد في قبره متوشح أكفانه، عليه سحنة الموتى. فكأني بكيت لما رأيته.

قال: يا بني، ما أبطأ بك عني؟

قلت: وإنك لتعلم بمجيئي؟

قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولي بدعائك.

وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها راهبة، قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء، فقالت: يا ذخري وذخيرتي من عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت ولا توحشني.

قال: فماتت، فكنت آتيها في كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات يوم في منامي، فقلت لها: يا أمي، كيف أنت؟

قالت: أي بني، إن للموت لكربة شديدة، وإني بحمد الله لفي برزخ محمود يُفرش فيه الريحان، ونتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور.

فقلت لها: ألك حاجة؟

قالت: نعم.

قلت: وما هي؟

قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك، يقال لي: يا راهبة، هذا ابنك، قد أقبل. فأسرّ ويسرّ بذلك من حولي من الأموات.

وحدثنا بشر بن منصور قال: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان، فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال: آنس الله وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن مسيئكم، وقبل حسناتكم. لا يزيد على هؤلاء الكلمات.

قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلي ولم آتِ المقابر فأدعو كما كنت أدعو. فبينا أنا نائم إذا بخلق قد جاءوني. فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟

قالوا: نحن أهل المقابر.

قلت: ما حاجتكم؟

قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك.

قلت: وما هي؟

قالوا: الدعوات التي كنت تدعو بها.

قلت: فإني أعود لذلك.

فما تركتها بعد.

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقربائه وإخوانه. قال عبد الله بن المبارك: تعرض أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا: اللهم راجع به.

وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: «سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية»، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الحي الرد، والله أعلم.

من أين تأتينا المصائب؟

عندما تتوالى علينا المصائب ربما نكون لطفاء مع أنفسنا ونقول إن الله يريد أن يبتلينا، ثم نتكلم عنه وكأنه ظلمنا! ولكن الله أصدق معنا من أنفسنا، فقد أخبرنا الحقيقة ولم يجمّلها، ولكننا نغمض أعيننا حتى لا نرى إلا ما نريد أن نراه فقط. يقول تعالى في كتابه **{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}** [الشورى: 30].

وهذا يعني أننا وذنوبنا المسؤولون عن هذه المصائب، فمهما يصبنا من مصائب فإنما هي عن سيئات قدمناها. فلماذا لا نحاسب أنفسنا على ما فعلنا من ذنوب؟ ثم نترك لضمائرنا فسحة من الحرية لنجيب بصدق.

ما الذي فعلته حتى عاقبني الله؟ فإن لم أجد الذنب أستغفر، فربما يكون ابتلاء لترتفع به الدرجات. ويعفو الله عن كثير من سيئاتنا فلا يجازينا عليها بل يعفو عنها **{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآبَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً...}** [النحل: 61]. المعنى نفسه جاء في الحديث الشريف «كل ما يصيب المؤمن يكفر الله عَزّ وَجلّ به عنه من خطاياه حتى الشوكة تشوكه» رواه الألباني. واذا سألت لماذا نجد كثيرين يعملون الفواحش والحرام والخطأ ولا تحل عليهم المصائب ويستمتعون بالحياة حتى آخر نقطة فيها؟

أقول: إن الله أحلم وأعدل من أن يعذبنا على ذنب مرتين ويثني علينا العذاب وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة. وجاء في الحديث عن عائشة رضي اللَّه عنْها قال الرسول ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفّرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفّرها عنه» حديث حسن.

فمن تعذب بالدنيا فقد نجا من العذاب على ذنبه ذاك في الآخرة، ومن أحبه الله عجل له الحساب على الذنوب في الدنيا كي يلقاه بريء الذمة نقي القلب وصحيفة أعماله طاهرة من الذنوب، ومن كثرت ذنوبه ولم يفكر في لقاء الله حتى نسي الحساب زاده الله في الدنيا عطاء وازدادت ذنوبه حتى بلغت عنان السماء فاستحق العذاب في الآخرة **{فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}** [التوبة: 55].

ومما قرأت أن أحد الصحابة نزلت به آلام ونوائب كثيرة حتى عجز عنها، فجاءه النبي عليه صلوات الله وسلامه فسأله: ماذا دعوت؟ فقال: دعوت أن يعذبني الله على ذنوبي في الدنيا بدل الآخرة. فقال له سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم: «سبحان الله لا تطيق، بل ادعُ الله بالعفو والمغفرة». فالصحيح هو أن ندعو الله بالعفو والمغفرة والإكثار من الاستغفار عما علمنا ولم نعلم ونسأل الله القبول. وعلينا بالصبر عند المصائب ومحاسبة النفس.

هل تعلم من هو لقمان؟

جاء في تفسير سورة لقمان تفسير قوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}** [لقمان: 12]. اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً، أم عبداً صالحاً من غير نبوة؟ فاختلفوا على قولين. قال يحيى بن سعيد الأنصاري: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة. وقال الأوزاعي: جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان أن أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم، كان أسود نوبياً ذا مشافر. وقال ابن جرير: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة. فذبحها فقال: أخرج أطيب مضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، فمكث ما شاء الله ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة. فذبحها فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

وقال شعبة: كان لقمان عبداً صالحاً، ولم يكن نبياً. وقال حكام بن سلم: كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين، مصفّح القدمين، قاضياً على بني إسرائيل، في زمن داود عليه السّلام، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم،

فقال له: ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا قال: نعم. فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني. فإنما الله رفع لقمان الحكيم بحكمته وبقدر الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وتركه ما لا يعنيه.

فهذه الآثار منها ما هو مصرّح فيه بنفي كونه نبياً، ومنها ما هو مشعر بذلك لأن كونه عبداً قد مسه الرق ينافي كونه نبياً. وعن أبي الدرداء رضي اللَّه عنْه ، أنه قال يوماً – وذكر لقمان الحكيم –.

فقال: ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال، ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلاً صمصامة سكيتاً، طويل التفكّر، عميق النظر، لم ينم نهاراً قط، ولا يغتسل، ولا يعبث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج وولد له أولاد، فماتوا فلم يبكِ عليهم. وكان يغشى السلطان، ويأتي الحكام، لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي.

وقد ورد أثر غريب عن قتادة قال: خيّر الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة على النبوة. قال: فأتاه جبريل وهو نائم فذرّ عليه الحكمة – أو رش عليه الحكمة – قال: فأصبح ينطق بها. قال سعيد: فسمعت عن قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيّرك ربك ؟ فقال: خيّرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إليّ. فهذا من رواية سعيد بن بشير الله أعلم. وفي قوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ...}** [لقمان: 12] أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً، ولم يوحَ إليه.

وقوله: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ...}** [لقمان: 12] أي: الفهم والعلم والتعبير، **{... أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ...}** [لقمان: 12] أي: أمرناه أن يشكر الله عَزّ وَجلّ, على ما أتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصّه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه. ثم قال تعالى: {... **وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ...}** [لقمان: 12] أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: {... **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}** [الروم: 44]. وقوله: **{... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}** [لقمان: 12] أي: غني عن العباد، لا يتضرّر بذلك، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عمن سواه؛ فلا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه.

فالمغزى أن الحكمة شيء مختلف تماماً عن العلم وهي عطاء عظيم القدر عند الله يستوجب الشكر. ومن عظمة قدر لقمان الحكيم عند الله أن جعل في كتابه سورة باسمه تتحدث عن حكمته **{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ}** [البقرة: 269].

نصرة الله عباده المؤمنين حق

من قال إن الله لا ينصر عباده المؤمنين؟ لقد أخطأ كثيراً من ظن ذلك. فالله تعالى ينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة طالما بقيت نيتهم خالصة لله **{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ}** [غافر: 51].

هناك من يسأل: قد عُلم أن بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء أكان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعياء، سلّط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السّلام ، من اليهود، فسلّط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماماً عادلاً. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة – رضي اللَّه عنْه – عن رسول الله – ﷺ – أنه قال:

يقول الله تعالى: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب».

وفي حديث آخر: «إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب».

ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم وأضرابهم ممن كذّب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحداً وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحداً. قال السدي: لم يبعث الله رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً

من المؤمنين يدعون إلى الحق فيُقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقتلون في الدنيا، وهم منصورون فيها. ولكن شرط النصرة من الله هو الإيمان به والدفاع عنه وعن دينه وحقه والعرض والشرف والنفس، لا أن يقاتل لأجل شيء من متاع الدنيا {**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**} [الحج: 38] فالله يدافع عن عباده الذين توكلوا عليه ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم. فإلى كل من قُتل وظنّ قاتله بأنه نجا ليحذر فسنّة الله في الأرض أن ينصر أولياءه ولو بعد موتهم فسينتقم الله لهم من قاتلهم.

هل تعلم من هو الرجل المذكور في سورة ياسين؟

{وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى...}.

كان اسمه حبيب النجار، وكان يتصدق بنصف كسبه كل يوم، وكان يتعبّد في غار هناك. وعندما علم أن قومه قد هموا بقتل رسلهم جاء لينقذ رسل الله الثلاثة صادق وصدوق وشلوم كي لا يرجموهم بالحجارة وقال لهم: **{وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} * {اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ}** [يس: 20–21] قالوا: عد إلى الغار، ولكنه أبى إلا أن يدافع عنهم فقتله أهل تلك القرية وظلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهدِ قومي فهم لا يعلمون فظلوا يطأونه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره.. وبعد موته أدخله الله الجنة فلما رآها **{قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ}** [يس: 26].

فقد ظل يدعو لقومه حتى بعد أن قتلوه!

قال قتادة: لا تلقَ مؤمناً إلا ناصحاً مع أن النصح أودى بهذا الرجل إلى الموت ثم إلى الجنة. فالطريق وعر وقليل هم سالكوه. وما زال الناس للأسف لا يتقبلون النصح ويهاجمون مناصحهم، كأنهم جُبلوا على ذلك.

يسّر الله القرآن لمن أراده فقط

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: 17]. أي سهّلنا لفظه ويسّرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس قراءته، كما قال تعالى: **{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ}** [ص: 29] **{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا}** [مريم: 97]. قال مجاهد **{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ...}** يعني هوّنا قراءته ويسّرنا تلاوته على الألسن.

وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسّره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عَزّ وَجلّ. ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن فلولا إرادة الله وتيسيره لنا لما أنطقنا به. وقوله **{... فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}** أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسرّ الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وهل من طالب علم فيُعان عليه؟ فمن أراد تعلّم القرآن الكريم وفهمه أعانه الله عليه بشرط توفر النية والإرادة.

أما من تلهّى عنه بملاهي الدنيا وابتعد ولم يتملّكه ذاك الإحساس بالرغبة في قراءته وفهمه أو حفظه فسيكون عليه غاية في الصعوبة، لأنه ميسر لمن أراده فقط.

جعلنا الله من أهله، وأجراه على ألسنتنا، وحفظه في قلوبنا، وأعاننا على العمل بما جاء فيه.

مشهد العرض على النار

{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف: 20].

المشهد سريع وحاسم، ولكنه يتضمن لفتة واسعة وعميقة. إنه مشهد العرض على النار، وفي مواجهتها وقبيل سوقهم إليها. يُقال لهم عن سبب عرضهم عليها وسوقهم إليها: **{... أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا...}** فقد كانوا يملكون الطيبات وكثيراً من نعم الله تبارك وتعالى: صحة وعافية وأولاد وأزواج وأموال، ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا، فلم يدّخروا للآخرة منها شيئاً؛ واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حساباً. استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع، غير ناظرين فيها إلى تقوى الله وحسابه لهم في الآخرة، ولا شاكرين لله نعمته، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام.

ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة. واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله!

{... فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ }.

وكل عبد يستكبر في الأرض فإنما يستكبر بغير حق. لأن الكبرياء لله وحده وليست لأحد من عباده في كثير أو قليل. وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار في الأرض. فجزاء الاستكبار الهوان. وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضاً.

(فإن العزة لله ورسوله والمؤمنين).

وبهذا المشهد المؤثر للمكذبين بالآخرة، الفاسقين عن منهج الله، المستكبرين عن طاعته. نشعر وكأنه لمسة للقلب البشري تستجيش الفطرة السليمة القويمة لارتياد الطريق الواصل المأمون الموصل إلى الجنة. فكل ما يؤتينا الله من نعم: صحة أو جمال أو أموال أو سلطة فنحن مخيّرون فيها بين أن نستمتع بها بالدنيا حلالاً وبالآخرة أيضاً، أو أن نستمتع بها في الدنيا بطرق محرمة، ولا نحمد الله عليها، ولا نعترف بفضله علينا فيها. فتذهب وتختفي، فلا نجدها بالآخرة لأننا أحرقنا هذه النعم واستهلكناها حتى فنيت في الحياة الدنيا بطرق محرمة كالزنا والتعري لإظهار المفاتن واستعراضها بطرق بشعة وكأننا من صنعها ووهبها. فلنتقِ الله بما أعطانا.. ولنشكره بالقول والفعل ولا نتكبر على خلقه.

موقف الظلمة والنور

إليكم وصف لمقام لنا يوم القيامة، لم أسمعه من أحد طوال حياتي، لا في دروس الدين ولا المناهج الدراسية، إلى أن قرأت عنه ودهشتي كانت عظيمة، ثم تملكني شعور مخيف بالرهبة والخوف. لأنه يصف أشخاصاً عرفناهم في الحياة وصلّينا معهم، وفي الحج كانوا إلى جانبنا، لكن لا ندري غداً في ذلك الموقف العظيم أين سنكون نحن؟ وهم أين سيكونون؟ وهل سنعبر الصراط المستقيم معاً بنورنا أم لا؟ فإن أضاء نور الإيمان قلوبنا في الحياة ربما أنقذنا الله بنوره وبنور القرآن يوم القيامة. واكتشفت من خلال هذا الموقف العظيم أنه ليس كل مسلم هو مؤمن وذاك الإيمان المختفي داخل القلب ولا يعلم به إلا الله هو ما يدخلنا الجنة بعد رحمة الله وليس عدد حجّاتنا مثلاً. ولا يملك أي إنسان الحكم على إيمان غيره، صدقه أو كذبه، إلا الله وحده، ولكن لنا الظاهر من الناس وأفعالهم فقط. ولا نملك الحكم على أحد. نسأل الله أن ينجينا من أهوال القيامة وينجينا من مواقفها العظيمة، ويتمم لنا نورنا كي نعبر به الصراط المستقيم.

في موقف لنا يوم القيامة تغطي فيه الظلمة كل شيء ثم يُعطى لكل مسلم نور على قدر إيمانه وعمله كي يعبر بهذا النور على الصراط المستقيم، فمن لم يتجاوز إسلامُه لسانَه، ولم يصل إلى الإيمان، فغرته الحياة الدنيا بزينتها حتى فضلها على الآخرة، فأصبحت صلاته وعباداته مجرد أفعال لا يحركها إيمان صادق راسخ في القلب، فمثل هؤلاء تنطفئ شعلة نورهم ولا يستطيعون رؤية الصراط كي يعبروا به إلى الجنة. عندها يحاولون اللحاق بالمؤمنين كي يستدلوا بنورهم على الطريق إلى الجنة، فيقول لهم المؤمنون: ارجعوا إلى حيث يُعطى النور فابحثوا عن نوركم واعبروا به، فيرجعون فلا يجدوا نورهم فيجعل الله بقدرته سوراً عظيماً بين المنافقين والمؤمنين، باطن السور من جانب المؤمنين الرحمة وظاهره من جانب المنافقين العذاب ثم يغلق الباب بين الطرفين. فيستجدي

المنافقون المؤمنين فيقولون لهم ألم نكن معكم في الحياة الدنيا؟ نصلي معاً ونحج معاً؟ فيرد المؤمنون: بلى كنتم معنا ولكنكم فتنتم أنفسكم واتّبعتم رغباتكم وأهواءكم ولم يكن في قلوبكم من الإيمان ما يكفي لجعل حبكم لثواب الله أكثر من حبكم لمتاع الدنيا، وارتبتم وشككتم بالبعث والحساب يوم القيامة، وغرتكم الأماني بغفران الله، وأجّلتم التوبة حتى جاء الأجل وغرّكم بالله الغرور فاتّبعتم أهواءكم بدل شرع الله وأضلكم الشيطان حتى جاء أجلكم وأنتم على هذه الحال، لذلك بقيتم مع الكفار ولم تعبروا معنا إلى الجنة. فهذا مكر الله بكم يوم القيامة أن ينطفئ نوركم كما مكرتم أنتم في الحياة الدنيا وظهرتم بمظهر الإسلام من صلاة وصيام، وعملتم بأعمال أهل الضلال في قلوبكم وجوارحكم في خلواتكم، وغركم بالله الغرور.

أرجو أن تقرأوا التفسير كما جاء في ابن كثير في هذه الآيات الكريمة من سورة الحديد **{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} * {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} * {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}** [الحديد: 12-14]. يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم كما جاء في قوله تعالى **{... يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ...}** أي على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم مَنْ نوره مثل الجبل، ومنهم مَنْ نوره مثل النخلة، ومنهم مَنْ نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً مَنْ نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة، ونحن على الصراط أحوج ما نكون لنور يضيء لنا هذا الدرب المظلم الدقيق.. والصعب.

عن أبي أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم ونجواكم ومجالسكم. فإذا كان يوم القيامة قيل يا فلان هذا نورك. وقال الضحاك: ليس أحد إلا يُعطى نوراً يوم القيامة فإذا انتهوا إلى الصراط انطفأ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما أطفئ نور المنافقين فقالوا: **{... رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا...}** [التحريم: 8].

{... يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم: 8].

وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة والزلازل العظيمة والأمور الفظيعة، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه نهى. قال ابن أبي حدثني سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها قال أبو أمامة: أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا – يشير إلى القبر – بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود وبيت الضيق إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة. فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة. ثم يقسم النور فيعطي المؤمن نوراً ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال **{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}** [النور: 40].

فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير. ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا **{... انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا...}** [الحديد: 13] وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: {... **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ...}** [النساء: 142] فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فيحاولون العودة إلى المؤمنين وقد ضرب بينهم الله {... **بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}** [الحديد: 13].

فما يزال المنافق مغتراً يظن نفسه مع المؤمنين ذاهباً إلى الجنة حتى يقسم النور ويميز الله بين المنافق والمؤمن.

ثم يبعث الله ظلمة يوم القيامة، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة كي يعبروا به على الصراط. فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ **{... انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ...}** فإنا كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون: **{... ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ...}**، من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور.

وقال أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده، وأما عند الصراط فإن الله يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: {... **انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ...**} وقال المؤمنون: {... **رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا...**} [التحريم: 8] فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً».

وقوله تعالى: {... **فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**} هو الذي قال الله تعالى: {**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ...**} [الأعراف: 46] {... **بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ...**} أي الجنة وما فيها {... **وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**} أي النار.

وإنما المراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه فإذا استكملوا دخولهم أُغلق الباب وبقي المنافقون من وراءه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة. {**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ...**} [الحديد: 14] أي ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ونصلي معكم الجماعات ونقف معكم بعرفات ونحضر معكم الغزوات ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ {... **قَالُوا بَلَى...**} [الزمر: 71] أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين بلى قد كنتم معنا {... **وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ...**} [الحديد: 14]، قال بعض السلف أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات {... **وَتَرَبَّصْتُمْ...**} أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت، أو تربصتم بالحق وأهله {... **وَارْتَبْتُمْ...**} أي بالبعث بعد الموت {... **وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ...**}، أي قلتم سيغفر لنا، وقيل غرتكم الدنيا {... **حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ...**} أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت {... **وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**} أي الشيطان فكانوا على خدعة من الشيطان والله، ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار. ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين إنكم كنتم معنا أي بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً.

قال مجاهد: كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم ويغتابونهم، وكانوا معهم أمواتاً ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ويماز بينهم حينئذ. وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم حيث يقول وهو أصدق القائلين: {**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ**

الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} [المدثر: 38-47] فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ ثم قال تعالى: **{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}** [المدثر: 48]. لذلك جعل الله لمن يتقي الله من المؤمنين مكافأة في هذا الموقف أن جعل له كفلين من رحمته ونوراً يمشي به يوم القيامة ويغفر له.. في قوله تعالى: **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [الحديد: 28].

ومن القلب أدعو لنفسي ولكم بأن يضيء الله قلوبنا بنور الإيمان والقرآن ويرزقنا توبة نصوحاً ونرجوه أن يوفقنا لعمل صالح يتقبله منا في الدنيا، وعسى فيه الرجاء والأمل بأن يضيء بنوره ظلمة ذاك اليوم حتى نعبر بهذا النور الصراط ونسكن الجنة بسلام.

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم: 8].

كيف يكون القرآن بصائر للناس؟

{هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [الجاثية: 20].

وصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة، فهو بذاته بصائر كاشفة، كما أن البصر يكشف لصاحبه عن الأمور. وهو بذاته هدى، وهو بذاته رحمة، ولكن هذا كله يتوقف على اليقين، يتوقف على الثقة بالله التي لا يخامرها شك، ولا يخالطها قلق، ولا تتسرب إليها ريبة. وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه، فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد. وعندئذ يبدو له الطريق واضحاً، والأفق منيراً، والغاية محددة، والنهج مستقيماً، وعندئذ يصبح هذا القرآن له نوراً وهدى ورحمة بهذا اليقين.

هذه الصفات العجيبة الموجودة في القرآن الكريم – هذا الكتاب المعجزة ببقائه بحرفيته كما هو منقول عن رب العالمين – وهذه الفائدة الحاصلة من سماعه أو قراءته، عامة للناس جميعاً من كل دين. أما المؤمنون فهو يقدم لهم المساعدة بشكل أكبر بسبب ثقتهم به فيهديهم إلى الخير والصلاح، ويحمل اليهم الرحمة وينير بصائرهم بنور منه يشع في وجدانهم وينير قلوبهم بإيمانهم به فينالوا الخير في دنياهم وآخرتهم.

فالقرآن يعطي لكل إنسان على قدر إيمانه وثقته به، فهناك من يقرأ المعوذات مثلاً ويثق في نفسه أن الله سيحفظه ببركة قراءتها من كل شر. وآخر يقرأها فقط لأنها سورة من القرآن فيناله بقراءتها الثواب الحاصل من قراءة أي سورة أخرى في القرآن. فيكون لكل منهما ما نوى. لكن تكرار التلاوة يزيد اليقين، وكلما ازداد اليقين زادت فائدة الروح من تلاوة القرآن وازدادت نقاء واستيعاباً لكلام الله تبارك وتعالى.

ومن جهة أخرى فمن يقرأ القرآن دون تدبر أو فهم لمعانيه فهناك بركة يحصل عليها لمجرد القراءة أو السماع حتى ولو دون فهم؛ فهو ينقي القلب ويداوي الروح بطريقة رائعة فيشعر من يسمعه أو يقرأه بالسكينة. لكن من يتدبر له أجر أكبر، فالقرآن عندما يُقرأ يجب أن يتصور المؤمن أنه يسمع الله يتكلم ولا يكون مجرد قارئ بل يجب أن يلغي القارئ الواسطة ويستشعر عظمة الله في كلامه. لذلك كان جعفر الصادق يقول «سمعت الله يقول..» من شدة صفاء نفسه في استقبال كلام ربه.

فالإيمان والثقة بالله وكلامه يرتقيان بصاحبهما إلى حيث لا تصل أبصار الناس أو خيالاتهم، ولا يشعر بهذا سوى المؤمن أو من ارتقى به إيمانه أكثر.

كيف يحول الله بين المرء وقلبه؟

يجول في خاطري عندما أقرأ هذه الآية الرائعة {... **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ...}** [الأنفال: 24] أفكار كثيرة عن الطرائق التي يمكن لله أن يحول بها بين الإنسان وما اشتهاه قلبه، أو رامت إليه نفسه، فيمنعه الله من الحصول عليه، لسبب مجهول، لا يدركه الإنسان، لكنه يجد نفسه محروماً منه، ولكنه لا يفكر أبداً أن هذا الشيء الذي اشتهاه ربما يكون سبب تعاسته وعذابه. لهذا حال الله بينه وبين ما اشتهى وأحب. ولكن المفسرين ذهبوا إلى معنى أعمق بكثير.

قال السدي: يحول الله عَزّ وَجلّ بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادة هو كقوله {**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** }[ق: 16].

{... **يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ...}**، ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة. فيفصل بينه وبين قلبه؛ ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه، ويصرفه كيف شاء، ويقلبه كما يريد. وصاحبه لا يملك منه شيئاً، وهو قلبه الذي بين جنبيه! إنها صورة رهيبة حقاً؛ يتمثلها القلب في النص القرآني، ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب، ووصف هذا الإيقاع في العصب والحس.

كما جاء في التفسير: إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة، والحذر الدائم، والاحتياط الدائم. اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته؛ والحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقاً، والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس. والتعلق الدائم بالله – سبحانه – مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته، أو غفلة من غفلاته، أو دفعة من دفعاته. ولقد كان رسول الله – ﷺ –

وهو رسول الله المعصوم يكثر من دعاء ربه: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قالت أم سلمة: فقلت يا رسول الله أوَ إن القلوب لتقلب؟ قال: «نعم ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عَزّ وَجلّ فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب» قالت: فقلت يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني».

بعد هذا ألا يجدر بنا أن نخاف على إيماننا فنستودعه الله في كل يوم وندعو كما علمنا قدوتنا سيد الخلق محمد ﷺ أن يثبت قلوبنا على الإيمان؟ إنها صورة تهز القلب حقاً، ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات، ناظراً إلى قلبه الذي بين جنبيه، وهو في قبضة القاهر الجبار، وهو لا يملك منه شيئاً، وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير!

لا تحب إلا من يستحق حبك

يظن الناس أنهم إن أحبوا شخصاً ودافعوا عنه في الحق والباطل وبرروا له أخطاءه، أو قلدوه واتبعوا سبيله، وساروا على خطاه في الشكل واللباس والتصرفات.. يظنون بأن الأمر سينتهي عند هذا الحد ولا يعلمون أن الإنسان يُحشر مع من يحب.

قال رسول الله ﷺ: «يُحشر المرء مع من أحب يوم القيامة». فما بال من أحب مغنياً لا يعلم ما خفي من عمله أو لاعب كرة أو حتى طاغية، فقد ربط نفسه به، أو كما هو دارج أن يجعل نفسه من «الفانز»، أي معجبيه ومحبيه الذين يتشاجرون لأجله ويعادون من ينتقده، ويغضبون كثيراً إن أسأت له

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} [البقرة: 165]. بينما علّم الله المسلمين أن الحب بين العباد يكون في الله، لا لجمال ولا لمال ولا لشهرة ولا لمصلحة ولا عن غباء وشهوات. فالحب يجب أن يكون في الله فقط دون غايات، ولا يتجاوز الحد ليصبح تعلقاً وهوساً، كحبنا لله ولجوئنا إليه عند الحاجة في كل الأمور. وإلا فإن المحب يكون قد وضع حبيبه نداً لله، وهذا من أعظم الذنوب، فتوعد من فعل ذلك بالعذاب الشديد. عن عبد الله بن مسعود قال: يا رسول الله أي الذنوب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

فكل إنسان سوف يجمع يوم القيامة مع نظيره أو شبيهه أو من كان يقدسه ويحبه ويقتدي به والدليل في قوله تعالى: **{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ}** [الصافات: 22]

وأزواجهم أي نظائرهم وأمثالهم بالذنوب ومن أحبوهم أكثر من حبهم لله. فنرى بعض الناس ينكر عليك أن تسيء لمن أحب أكثر مما يثور إن أسأت إلى الله تبارك وتعالى.

قال رسول الله ﷺ في تفسير الآية **{وَإِذَا * النُّفُوسُ * زُوِّجَتْ *}** [التكوير: 7] قال: «الضرباء كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله».

ولذلك فإن الله عَزّ وَجلّ قسم العباد إلى ثلاثة أقسام: **{وَكُنْتُمْ * أَزْوَاجًا * ثَلاَثَةً *}** * **{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}** * **{وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}** * **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}** [الواقعة: 7–10].

ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف قوم عن يمين العرش ويؤتون كتبهم بيمينهم وهم جمهور أهل الجنة وآخرون عن يسار العرش ويؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار – أعاذنا الله منها – وطائفة سابقون بين يدي الله عَزّ وَجلّ وهم أخص وأحظ وأقرب من أصحاب اليمين وفيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء وهم أقل من أصحاب اليمين.

وفي قوله تعالى: **{وَإِذَا * النُّفُوسُ * زُوِّجَتْ *}** [التكوير: 7]. أي يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح والرجل السوء مع الرجل السوء في النار فيزوج نظيره (أي ربط بمثيله) من أهل الجنة أو من أهل النار.

فقبل أن تتسرع وتقول إنك تحب شخصاً تبين ما عمله وإيمانه، وبدل أن تنظر إلى ماله وشكله ومكانته. نقول نحن لك: ابتعد عن حب من لا تعرف عنه شيئاً إلا اسمه وانظر إلى عمله قبل أن تنظر إلى أي شيء آخر فيه، وفكّر.

هل يستحق هذا الإنسان أن أحبه وأقرن نفسي به يوم القيامة؟ فالحب شيء خطير قد يجرك إلى جهنم ويحشرك مع من أحببت وقلدت وعاشرت من أهلها. أو قد يسحبك إلى الجنة مع من أحببت من أهلها وقلّدت وعاشرت منهم **{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [النساء: 69].

فالناس الآن يتحاسدون على شهرة أو مال أو جمال أو أي شيء من متاع الدنيا، وكأنهم لا يشتهون إلا اللذات ولا تجذبهم إلا متع الدنيا فقط. بينما الحسد لا يستحقه إلا اثنان كما جاء في

الحديث الشريف «لا حسد إلا في اثنتين رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل أتاه الله مالاً فهو يهلكه بالحق فقال رجل ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل» رواه الإمام بخاري والنسائي. وجاء في رواية للشيخين «لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها».

فأين نحن الآن من هذا؟!

والحسد هنا هو بمعنى الغبطة أي تمني النعمة للنفس وعدم تمني زوالها عن صاحبها.

بين الإيمان والإسلام

هل هناك فرق بين المسلم والمؤمن؟

من الأمور العادية جداً في بلاد الغرب، مع أنها بلاد يغلب عليها الدين المسيحي، أن تسمع إنساناً يسأل آخر، هل أنت مؤمن بوجود الله؟ فيجيب الآخر بكل صراحة وصدق بالنفي أو الإيجاب. أما عندنا في بلادنا ذات الطابع الإسلامي فلا نملك الجرأة كي يسأل أحدنا الآخر عما إذا كان مؤمناً بالله، ولا يملك الآخر الصدق ليجيب. ربما لأننا نعتبر أنفسنا مؤمنين لمجرد أننا ورثنا الإسلام أو لأننا نصلي أو نرخي اللحى أو نضع الحجاب أو ما يشبهه من مظاهر الإسلام. فهل تكفي هذه المظاهر لجعلنا مؤمنين؟ والجواب الذي يجيبنا عنه الله عَزّ وَجلّ:

لا يكفي أن نصلي ونصوم كي نكون مؤمنين. فلا يغتر أحدنا بصلاته وصيامه، فهذه الأفعال التي هي من أركان الإسلام تجعلنا مسلمين فقط. أما الإيمان فهو درجة أعلى تشمل فهمنا لحقيقة الإسلام وبعد الفهم والإدراك والاقتناع بحيث يأتي العمل بموجب ما علمنا، عندها يبدأ الإيمان بالظهور في تعاملنا مع من حولنا، وتجد جوهره بات واضحاً بأخلاقنا وكلامنا وعملنا، وبإحساسنا بوجود الله داخل صدورنا **{... وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** [ق: 16] فيصبح نوره واضحاً في أقوالنا وأفعالنا.

سئلت مرة عن شخص يصلي في المسجد ويطيل لحيته ويقصر ثوبه، ثم تجده يظلم أخته، ولا يحفظ لسانه عن أعراض الناس، ويأكل مال أولاد أخيه الأيتام بدل أن يساعدهم. فهو يتشبّه بمظهر الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ولا يملك من خُلُقه شيئاً، فكيف يكون مثله مسلماً؟ وهل تحتسب صلاة مثل هذا الشخص؟

عن أمثاله نزلت هذه الآية الكريمة لتبين الفرق بين المسلم والمؤمن، أو حتى المنافق، ولتخبرنا بأن الله من عدله وفضله لم يحرم أمثال هؤلاء ثواب صلاتهم وصيامهم وحجهم، ولكن لن تشفع لهم صلاتهم من العقاب على كل ظلم أو أذىً ألحقوه بمن حولهم، وهم يدَّعون الإيمان، فجاءت الآية لتجردهم من صفة الإيمان التي يدَّعونها لأنفسهم. وبسبب حساسية الموضوع أرفقت التفسير بالآية حتى تتضح الفكرة. **{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [الحجرات: 14].

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين حين دخلوا في الإسلام ادّعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكّن الإيمان في قلوبهم بعد **{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...}** وقد استُفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان فترقى من الأعم إلى الأخص ثم إلى الأخص منه. أي من الإسلام إلى الإيمان ثم الإحسان وهو الأعلى درجة.

وقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً.. فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأُدّبوا في ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنْهما. في قوله تبارك وتعالى: **{... وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا...}**. قال قتادة نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ، والصحيح أنهم قوم ادّعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يحصل لهم بعد فأُدّبوا وأُعلِموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ولو كانوا منافقين لعُنّفوا وفُضِحوا كما ذُكِر المنافقون في سورة براءة وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: **{... قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...}** أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال تعالى: **{... وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا...}**
أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً، أجر صلاتكم وزكاتكم وصيامكم وحتى حجّكم. كقوله عَزّ وَجلّ: **{... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [الممتحنة: 12] أي لمن تاب إليه وأناب.. **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا**

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات: 15].. **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ...}** أي إنما المؤمنون الكُمّل **{... الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا...}** أي لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة وهي التصديق المحض **{... وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...}** أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه **{... أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}** أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا بعض مظاهره. وكأن البذل في سبيل الله يرفع المسلم ليوصله إلى الإيمان.

وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي اللَّه عنْه قال إن النبي ﷺ: قال المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: «الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عَزّ وَجلّ ».

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنْهما: قال جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك فقال رسول الله ﷺ «إن فقههم قليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم» ونزلت هذه الآية **{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...}** [الحجرات: 17] لله المنة على من هدى ومن عمل صالحاً، فذاك بتوفيق الله له يسر له فعله ومن اخترقت الريبة، أي الشك أو عدم الثقة بالله ورسوله وما أخبر به، قلبه فقد هلك بشكه وريبته. ثبّتنا الله على الحق والإيمان الثابت بالله وبما جاء به سيد المرسلين محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والتسليم.

هل يحمل الآباء أبنائهم إلى الجنة؟

كثيراً ما يحصد الأبناء من غرس آبائهم إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر. فهل المال وحده ما يرثه الأبناء عن آبائهم؟ أم أنهم يرثون المال والدين والسمعة الطيبة أو السيئة والأمراض الوراثية والطبائع والعادات والشبه بالخلق والخلقة فقط؟ الحقيقة هي أن هناك أشياء أخرى يرثها الأبناء عن آبائهم.. إنها أعمالهم الصالحة.

فالعدل الإلهي يجعلنا ننحني احتراماً لروعته عندما يلحق الأبناء بالآباء الصالحين، إن كان الآباء أعلى منهم درجة دون أن يضطروا للتبرع بحسناتهم لأبنائهم، خاصة إن قلّ صلاح الأبناء.

فمن آمن وآمنت ذريته من بعده، فمن فضل الله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم الله بآبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا بعملهم صلاح آبائهم رفعهم الله إليهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه وذلك بأن يرفع ناقص العمل بكامل العمل ولا ينقص ذلك من عمل الأب ومنزلته شيئاً **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}** [الطور: 21]. أي ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً.

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة وأولادهم الصغار تلحق بهم. وكذلك أولاد المشركين، قال ابن عباس إن أطفال المشركين في الجنة، وخاصة الموؤودة ففيها نزلت **{وَإِذَا * الْمَوْءُودَةُ * سُئِلَتْ} * {بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}** [التكوير: 8-9]. فمن رحمة الله تعالى أن لا يعذب أطفال المشركين الذين ماتوا صغاراً بسبب شرك آبائهم فهم لم يبلغوا الحلم ولم يُكلفوا فلا يُحاسبون.. قال تعالى: **{... فَمَنِ**

اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}** [يونس: 108] **{... وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...}** : [الأنعام: 164] **{... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [الإسراء: 15]. فلا يحمل الأبناء من أوزار آبائهم، ولا يدخلون النار بذنوب آبائهم، والعلم عند الله. وفي قوله تعالى **{... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}** [الطور: 21] لما أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء عن غير عمل يقتضي ذلك أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد فقال تعالى: **{... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}**. أي مرتهن بعمله لا يُحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً كما قال تعالى: **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ}** [المدثر: 38–39]، أي حبيسة عملها إن خيراً فهي في خير وإن شراً فهي في كرب جزاء عملها. فالذنب لا يورَّث أما الصلاح فيورّث ليس فقط إلى الأبناء، بل إلى أبناء الأبناء حتى أجيال كثيرة.. فنجد من كان في عائلته جد صالح فإن بركة صلاحه تطال أحفاده حتى أجيال كثيرة والدليل في سورة الكهف، **{... وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ...}** [الكهف: 82] فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته وتشملهم بركة عبادته في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن ووردت به السنة. قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: حُفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهما صلاحاً وتقدم أنه كان الأب السابع والله أعلم.

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد عن أبي هريرة رضي اللَّه عنْه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك» إسناده صحيح له شاهد في صحيح مسلم.

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول يا رب قد عملت لي ولهم. فيؤمر بإلحاقهم به».

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»، فدعاء الولد لأبيه يكون كاستمرار لعمل الأب ويوضع في صحيفته مع أعماله، كأن عمله لم ينقطع بموته.

ومن لم يكن له ولد صالح يدعو له، فليعمل هو عمل خير يصل إليه ثوابه حتى بعد موته، كحفر بئر، أو علم ينتفع به، أو وقف لله من ماله، وغيره من الأعمال الصالحة. جعلنا الله وإياكم وذرياتنا من أهل هذه الأعمال الصالحة.

حب المال

من منا لا يحب المال؟ قليلون من يدركون حقيقته فلا يقعون في شباكه.

الآيات الأخيرة في سورة محمد تتحدث عن علم الله بشدة حب الإنسان لماله حتى أن هناك من يكره من يطالبه بإنفاق ماله فيعتبره عدوه! وهذا موجود في أصل خلق البشر، فخالق البشر أدرى بخلقه وهو من أخبر عن حبهم للمال فقال: **{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}** [الفجر: 20].

وقد تحدث الله عَزّ وَجلّ عن حب الإنسان للمال ثم أخذ يرقى بنا ويدفعنا بطرق مباشرة أو غير مباشرة كي يرتفع بنا إيماننا ونصل إلى ذاك المستوى الذي يجعلنا نحب ما عند الله من الأجر والثواب أكثر مما نحب المال. فندفع المال ونشتري شيئاً لا تراه عيوننا ولا تلمسه أيدينا، ولكن ندركه بقلوبنا.. فنشتري بالمال بر الله عَزّ وَجلّ ورضاه **{لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}** [البقرة: 177].

فبذل المال ذُكر قبل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لأنه شيء منفصل عنهما وثوابه أعظم. ثم علمنا أننا كلما استطعنا أن نعطي أكثر، أعطانا الله من خيرات الدنيا والآخرة أكثر. وأن من يبخل بالعطاء لوجه الله فإنما يبخل على نفسه بالثواب **{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً}** [النساء: 37]. وفي قول تعالى: **{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ...}** أي بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من الإنفاق على النفس والوالدين ثم الإحسان

إلى الأقرباء واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم من الأرقاء والعمال. فهناك من لا يدفعون حق الله بأموالهم من زكاة أو صدقة أو إنفاق على أهله وأولاده ويأمرون الناس بالبخل أيضاً. وقد قال رسول الله ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل». وقال: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم؛ أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا».

وقوله تعالى: **{... وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...}** فالبخل جحود لنعمة الله فلا تظهر عليه النعمة ولا تبين، لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله. كما قال تعالى: **{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}** * **{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}** [العاديات: 7–8]. أي الله سبحانه عليم بحاله وشمائله.

وقال ههنا: ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، ولهذا توعدهم بقوله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والكفر هو الستر والتغطية فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها فهو كافر لنعمة الله عليه. وفي الحديث «إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه» وفي الدعاء النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا».

وفي قوله تعالى: **{إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ}** [محمد: 36]. فالحياة الدنيا لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى، حين تُعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها. ذلك المنهج الذي يجعلها مزرعة الآخرة؛ ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذي يستحق وراثة الدار الباقية. وهذا هو الذي تشير إليه الفقرة التالية في الآية: **{... وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ...}** فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يخرجها عن أن تكون لعباً ولهواً، ويطبعها بطابع الجد، ويرفعها عن مستوى المتاع الحيواني، إلى مستوى الخلافة الراشدة، المتصلة بالملأ الأعلى. ويومئذ لن يكون ما يبذله المؤمن المتقي من عرض هذه الحياة الدنيا ضائعاً ولا مقطوعاً؛ فعنه ينشأ الأجر الأوفى، في الدار الأبقى.. ومع هذا فإن الله لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها، ولا يطلب منهم التصدق بها كلها لعلمه بحاجتهم إليها وحبهم لها.. وكي لا يشق عليهم في فرائضه وتكاليفه، لعلمه سبحانه بشح نفوسهم فطرةً وخلقة. وهو لا يكلف نفساً إلا وسعها وهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها، فتضيق صدورهم وتظهر أضغانهم: فسؤال الناس أموالهم يظهر ما تحتوي نفوسهم من شر وكره وبغض.. صدق رب العالمين **{إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}** [محمد: 37].

وهذا النص يوحي بحكمة اللطيف الخبير، كما يوحي برحمته ولطفه بالنفوس. وعلمه السابق بكينونتهم، ويكشف عن التقدير الدقيق في تكاليف هذا الدين، ومراعاته للفطرة، وتناسقه مع بشرية البشر بكل استعداداتها، وطاقاتها، وأحوالها. فهو عقيدة ربانية لإنشاء نظام رباني إنساني؛ نظام رباني من ناحية أن الله هو الذي يقيم منهجه وقواعده، وإنساني من ناحية أن الله يراعي في تكاليفه طاقة الإنسان وحاجته. والله هو الذي خلق، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

وفي النهاية يواجههم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى البذل في سبيل الله؛ ويعالج شح النفوس بالمال بالوسائل القرآنية، كما عالج شحها في النفس ذاتها **{... وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}** [محمد: 38].

والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك. ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى البذل في كل بيئة وكل زمان.. فهي تقرر أن منهم من يبخل، ومعنى هذا أن هنالك من لا يبخلون بشيء. وقد كان هذا واقعاً، سجلته الروايات الكثيرة الصادقة، وسجله القرآن في مواضع أخرى. وقد حقق الإسلام في هذا المجال مثلاً تحسبه من خوارق الأمثال في البذل والتضحية عن رضى وعن فرح بالبذل والعطاء. ولكن هذا لم يمنع أن يكون هنالك من يبخل بالمال. ولعل الجود بالنفس أرخص عند بعضهم من الجود بالمال! والقرآن يعالج هذا الشح في هذه الآية: **{... وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ...}** فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد، يوم يُحشرون مجرّدين من كل ما يملكون. فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور. فإذا بخلوا بالبذل، فإنما يبخلون على أنفسهم؛ ويقللون من رصيدهم؛ ويستخسرون المال في ذواتهم وأشخاصهم؛ ويحرمونها بأيديهم!

أجل. فالله لا يطلب إليهم البذل، إلا وهو يريد لهم الخير، ويريد لهم الوفر، ويريد لهم الكنز والذخر. وما يناله شيء مما يبذلون، ولا هو في حاجة إلى ما ينفقون: **{... وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ...}**.

فهو الذي أعطاكم أموالكم، وهو الذي يدّخر لكم عنده ما تنفقونه منها، فما نقص مال من صدقة. وهو الغني عما أعطاكم في الدنيا، الغني عن أرصدتكم المذخورة في الآخرة. وأنتم الفقراء في الدارين وفي الحالين. أنتم الفقراء إلى رزقه في الدنيا، فما لكم من قدرة على شيء من الرزق إلا

أن يهبكم إياه. وأنتم الفقراء إلى أجره في الآخرة، فهو الذي يتفضّل به عليكم، وما أنتم بموفين شيئاً مما عليكم، فضلاً عن أن يفضل لكم شيء في الآخرة، إلا أن يتفضّل عليكم.

ففيمَ البخل إذن وفيمَ الشح؟ وكل ما في أيديكم، وكل ما ينالكم من أجر على ما تنفقون هو من عند الله، ومن فضل الله؟ إنما هو تحويل لهذا المال من صفته المعهودة في الدنيا كمال وتحويله إلى حسنات تتكاثر عند الله وتزداد، فنستمتع بها في الدار الآخرة.

ثم الكلمة الأخيرة وهي: إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومنّ وعطاء. فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلاً لهذا الفضل، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة، وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهون عليكم كل ما عداه.. فإن الله يسترد، ما وهب، ويختار غيركم لهذه المنّة ممن يقدر فضل الله: **{... وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}.**

وإنه لإنذار رهيب لمن ذاق حلاوة الإيمان، وأحس بكرامته على الله، وبمقامه في هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهي العظيم. ويمشي في الأرض بسلطان الله في قلبه؛ ونور الله في كيانه؛ ويذهب ويجيء وعليه شارة مولاه.

وما يطيق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم سُلِبت منه، وطُرِد من الكنف، وأوصِدت دونه الأبواب. لا بل إن الحياة لتغدو جحيماً لا يُطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب.

إن الإيمان هبة ضخمة، لا يعدلها في هذا الوجود شيء؛ والحياة رخيصة رخيصة، والمال زهيد زهيد، حين يوضع الإيمان في كفة، ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه. ومن ثم كان هذا الإنذار أهول ما يواجهه المؤمن، وهو يتلقاه من الله.

أسأل الله أن يرزقنا ما ننفقه في طاعته ونسأل الله أن يتقبّله منا.

الذكر عبادة مهملة

عندما نستغل أوقات فراغنا ونستثمرها لتوطيد علاقتنا مع الله عَزّ وَجلّ بزيادة النوافل وكثرة التسبيح.. حتى نزداد قرباً منه، ونكون بذلك كمن يدخر كنوزاً سحرية. وتكون لنا رصيداً مخبأ عنده عَزّ وَجلّ تساعدنا في الأزمات والشدائد.. على العبور بأمان حيث تشفع لنا عند الرحمن، ندعوه فيرفع عنا البلاء ويعجل لنا بالفرج ببركتها. والدليل على هذا في قصة سيدنا يونس عليه السّلام.. **{فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ}** * **{لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}** [الصافات: 143-144]. حيث ذكر في القرآن الكريم أن كثرة تسبيح سيدنا يونس قد شفعت له عند ربه في شدته تلك وهو عالق في ظلمات ثلاث: ظلمة بطن الحوت وظلمة عمق البحر وظلمة الليل، فأنقذه الله عَزّ وَجلّ من هذا الابتلاء العظيم الذي لا يشبه أي ابتلاء آخر، فأخرجه من تلك الظلمة الرهيبة بكثرة تسبيحه. **{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}** * **{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}** [الأنبياء: 87-88]. فتسبيحه الله عَزّ وَجلّ كان كثيراً من قبل حلول البلاء.. واستمر أثناء حدوثه.

فكونه كان من المسبحين، أنقذته هذه العبادة المهملة عند كثير من المسلمين من بليته الفريدة من نوعها، الفظيعة في تكوينها. فكثرة التسبيح في الرخاء تشفع لنا عند لله في الشدائد.

فلنجعل لأنفسنا ورداً يومياً من التسبيح يكون سهلاً كي نداوم عليه. فهذه العبادة بكونها لا تتطلب وضوءاً ولا طهارة ولا اتجاهاً نحو القبلة ولا انقطاعاً عن كل عمل لأجلها، لذلك هي أسهل العبادات، فنستطيع التسبيح خلال القيام بأي عمل آخر. وهذا لا يترك لنا عذراً كي ننقطع عنه

بحجة الانشغال ولندّخره لأنفسنا فنجده عند الشدائد. وخاصة إن دعونا بدعوة سيدنا يونس فقد وعد الله بالإجابة لكل من دعا بها إن شاء الله.

ولأن ذكر الله هو في قمة العبادات وأكثرها ثواباً فقد ذُكرت العبادات كلها في هذه الآية، وبين كل عبادة والعبادة التي تليها مرتبة، إلى أن جعل الله ذكر الله الكثير أي في كل الأوقات والأحوال في قمة هرم العبادات، هذا برغم الأجر والثواب الكبير لكل وحدة من هذه العبادات. كما جاء في سورة الأحزاب قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}** [الأحزاب: 35].

وذكر في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين، كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات». وعن أبي سعيد الخدري قال: يا رسول الله أي العبادات أفضل درجة عند الله تعالى يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات. ولما جاء رجل إلى رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم فسأله فقال: أي المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله قال: أكثرهم لله تعالى ذكراً. قال: فأي الصائمين أكثر أجراً فقال أكثرهم لله عَزّ وَجلّ ذكراً. فسأله عن الصلاة والزكاة والحج والصدقة، فيجيب رسول الله ﷺ على كل ذلك: أكثرهم ذكراً. «فالذكر يرفع معه كل عبادة أخرى يعمل بها المسلم ولا يفوقه أجراً إلا من ذكر أكثر منه». فالمقياس هو الذكر لله عَزّ وَجلّ.

وقد أمرنا الله تعالى بكثرة الذكر بالتسبيح في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}** [الأحزاب: 41-42]. ومع ذلك مازال الناس مشغولين بدنياهم عن الذكر.. وفقنا الله وإياكم إلى ذكره وشكره وحسن عبادته.

التفكّر.. عبادة مهملة

من منا يملك بعض الوقت أو الفراغ ومن منا يخصّصه لنفسه؟ بعض الناس لا يملكون وقت فراغ وبعضهم الآخر يملكون الكثير من الوقت ولكنهم يهدرونه في أشياء لا تنفع ولا تضر. وخصوصاً مع كثرة أدوات الترفيه ووفرتها وإضاعة الوقت، ولكن من يخصّص بعض الوقت ليجلس ويفكر فسوف يجد حلولاً لمشكلات مركونة على رف النسيان تنتظر من يذكرها، وقد تكون حلولها بسيطة ولكن انشغالنا الدائم عنها جعلها تنتظر كثيراً.. حتى تجد حلولها. هذه الدقائق القليلة التي نخصصها لنفكر نكسب بها الأجر لأن التفكر في خلق الله عبادة! فأن نفكر في أخطائنا يمنحنا الفرصة لإصلاحها، والتفكير بالأشياء الجيدة التي فعلناها يشجعنا لعمل المزيد، والتفكير في أخطاء غيرنا يجعلنا نحذر الوقوع فيها، والتفكير بأشخاص كانوا بحاجة إلى المساعدة ولم نستطع تقديمها لهم يجعلنا ندعو لهم بظهر الغيب ونفكر بمساعدتهم بطرق شتى، والتفكير بعجزنا أمام بعض الأمور يشعرنا بحاجة إلى الله واللجوء إليه لمساعدتنا.. وشعورنا بالحاجة إلى الآخرين يعزز علاقاتنا بهم، والتفكير في قدرة الله يصفي الذهن ويهون المصائب.

وهكذا نجد أن التفكّر والتفكير وإعطاء أنفسنا بعض الوقت بعيداً عن الهاتف والنت والقنوات الفضائية والتزاماتنا اليومية هو بحد ذاته علاج لكثير من مشاكلنا وأمراضنا التي أصبحت كثيرة ومستعصية في هذا الزمان الصعب. فرياضة اليوغا أهم هدف منها هو تصفية العقل، والحل الوحيد هو الجلوس دون حراك والتفكير العميق فيها أي التفكير الذي هو دائماً الطريق الوحيد إلى إيجاد الحلول. وهذه الطريقة موجودة في الإسلام ومذكورة في القرآن مع أني لم أسمع أياً من المشايخ الكرام يتحدث عنها إلا ما ندر. والآيات التي ذُكِر فيها التفكّر كثيرة جداً منها **{... فَاقْصُصِ**

الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: 176]. فالقصص المذكورة في القرآن تكلم عنها الله بهدف جعلنا نفكر فيها وليس بقصد التأريخ. {... **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** [يونس: 24].

وكل تفصيل في القرآن هو دعوة إلى التفكير لمن أحب الخوض في غماره، وبعض الآيات هي تحدٍّ لمن يحاول فك ألغازها وهي دعوة لمن أحب التفكير والتعمق أكثر لفهم أبعادها ومعانيها العظيمة. **{... لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}** [النحل: 44] أي ما أنزل في القرآن ليبين لنا أمور ديننا لعلنا نفكر أكثر بما جاء فيه من معان.

أردت أن أذّكر نفسي وإياكم بهذه العبادة المفيدة، علنا نستطيع التغلب على كل مغريات الترفيه وإضاعة الوقت والجلوس مع أنفسنا والتأمل قليلاً وتصفية الذهن وتغذية الروح، والتفكير ولو ساعة في الأسبوع. لنفكر قليلاً في هذه الدنيا وفي أنفسنا وفي من حولنا من أشخاص نراهم كل يوم ولا نتذكر أن نفكّر فيهم، علنا نخرج من دوامة الحياة ورحاها التي تطحن أيامنا وتبتلعها وتسرق منا عمرنا دون مقابل.

صلاة مُهمَلة

هناك صلاة قليل من يحافظ عليها، لكن العجيب أنها كانت فُرضت على المسلمين ثم خفّفها الله تبارك وتعالى عنهم رحمة بهم، والغريب أننا لا نعرف هذه المعلومة عنها، إنها صلاة قيام الليل أو التهجّد. ونبدأ بمعناها كما جاء في سورة المزمل في قوله تعالى: **{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً}** [المزمل: 6].

يقال نشأ: إذا قام من الليل بعد العشاء، فناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة. والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة وتوافقاً بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة ولهذا قال تعالى: **{... هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً}** أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش.

لذلك تكون صلاة الليل أكثر خشوعاً ونشعر فيها بالقرب من الله فتحمل مذاقاً خاصاً ومختلفاً عن صلوات النهار التي كثيراً ما نصليها ونحن نفكر بما يجب علينا فعله بعدها. فانشغالنا بمشاغل الحياة يشد تفكيرنا ويسرق منا خشوعنا وحضورنا في الصلاة. لذلك دعانا الله عَزّ وَجلّ إلى التفرّغ في الليل للعبادة والوقوف بين يديه لصلاة القيام وترك النهار للعمل وقضاء حوائج المعاش. وجاء ذلك في قوله تعالى: **{إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً}** [المزمل: 7]. أي دع النهار لحوائجك وأفرغ لدينك الليل هذا حين كانت صلاة الليل فريضة.

وهنا تكمن المفاجأة! فصلاة الليل التي لا نلقي لها بالاً وكثيرون منا لا يصلونها، ولا يشعرون بأن أداءها مهم، قد كانت فرضاً على كل مسلم. ففي زماننا يظن معظم المسلمين أنهم إن أدوا فرضهم فهذا يكفي ويغني فأصبح القليل منهم يصلون السنة أما القيام فليس وارداً إلا عند القلة.

فالناس الآن لا يهتمون بهذه الصلاة لأنها نافلة للمجتهدين في التقرب لله فهم لا يعرفون أهميتها ولا حتى أنها كانت مفروضة على المسلمين.

ثم إن الله تبارك وتعالى منَّ على عباده فخفّف صلاة القيام بعد أن اجتهد بأدائها الصحابة الكرام رضي اللَّه عنْهم كما جاء في قوله تعالى لنبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه: **{قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً} * {نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً} * {أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً}** [المزمل: 2-4].

مع العلم أنها بقيت مفروضة قرابة الثمانية أشهر، وفي رواية أخرى مدة سنة كاملة، يقوم المسلمون ويصلوها وكأنها فرض إلى أن نزلت الآية الأخيرة من سورة المزمل وفيها التخفيف عن المسلمين فأعفاهم من وجوب القيام بها.

قال تعالى: {**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ...}** [المزمل: 20].

خفّف الله عَزّ وَجلّ عن المسلمين بعد عام كامل قام فيه كل مسلم مريض وصحيح، شيخ وشاب وامرأة، كل يوم نصف الليل أو ثلثه. بعد يوم عمل طويل وحار فمن منا يطيق ساعة واحدة من القيام؟ إلا ما ندر. فطول الوقوف بين يدي الله له مقام خاص وقرب خاص من الرحمن لا يستطيعه أي مسلم صلى وصام وحج وأخرج زكاة ماله.

فمن عمل هذه الأركان في هذا الزمان أصبح يعتبر نفسه مع الأولياء والصالحين بينما هو لم يتقرب إلى الله بعد. ومازال في علاقته بربه على حافة الواجب المفروض. ولم يسر إلى الله خطوة واحدة من التقرب والتعبد فالتقرب من الله لا يكون بأداء الفرض فقط بل يكون بأداء النوافل والمداومة عليها دون انقطاع إلا لعذر. فأحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه. جاء عن عائشة رضي لله عنها أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقونه فإن الله لا يملّ حتى تملّوا. وإن أحب الأعمال إلى الله ما دووم عليه وإن قل» وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه. صحيح مسلم

فنحن الآن لا نطيق الوقوف ساعة من الليل في القيام بينما كان الصحابة مستعدين للوقوف نصف الليل وثلثه بين يدي الله في الصلاة تقرباً منه حتى تتفطر أقدامهم. فهل عرفتم الآن لماذا كان هؤلاء الصحابة أعلى درجة وكان منهم المبشّرون بالجنة؟

لهذا يجب أن نحبهم ونقدرهم لأنهم بحبهم لله وامتثالهم لأمره بالرغم من الجهد لسنة كاملة وليس ليوم أو شهر، ببركة مداومتهم على صلاة الليل، صحيحهم ومريضهم، نسائهم ورجالهم، خففها الله عنا وعنهم.. فماذا فعلنا بها؟ تناسيناها وتجاهلناها، واستثقلنا قيامها إلا في رمضان حيث نجد المساجد التي لا يطيل إمامها القيام مكتظة أكثر من غيرها، وفي غير رمضان الله أعلم بالمسلمين وبحالهم وقيامهم.

والمضحك المبكي أن من لا يقوم الليل يظن بأنه سيحصل على المقامات العالية في الجنة، ويشعر أنه يستحقها. بينما الله تعالى يقول لسيد المرسلين وهو من قام وتفطرت قدماه بالقيام **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}** [الإسراء: 79]. عسى يعني: ربما غير مؤكد.. أي ربما يكرمك الله بهذا المقام المحمود. ومع أن الخطاب هنا جاء للحبيب محمد ﷺ إلا أن الله لم يعطه الضمان لحصوله على هذا المقام المحمود. لذلك نحن ندعو له كي يحصل على هذا المقام المحمود كلما سمعنا الأذان «اللهم آتِ سيدنا محمد المقام المحمود الذي وعدته» هذا ما يجعلنا أبعد عن اليقين لدنو منزلتنا عند الله تعالى عن نبينا الأكرم.

فكيف يطمع من أدى الواجب واستثقل القيام ولو بركعتين خفيفتين أن يفوز بمقام كهذا عند الله دون جهد؟ قال تعالى لهؤلاء: {**أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ**} [المعارج: 38–39].

قيل: يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله. قالت: ألست تقرأ هذه السورة **{يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}**؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرا ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة.. ثم سئلت عن وتر رسول الله ﷺ، فقيل: يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ، قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوّك ثم يتوضأ ثم يصلي ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه تعالى، ويدعو ثم ينهض وما يسلم، ثم يقوم ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر الله

وحده ثم يدعوه، ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني. فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذه اللحم (أي عندما كبر الرسول ﷺ وازداد وزنه) أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك تسع يا بني. وكان رسول الله ﷺ إذا صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة (أي أن النبي ﷺ كان يصلي في النهار اثنتي عشرة ركعة وهي السنن الراتبة المؤكدة بعد أو قبل الفرض) ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ولا صام شهراً كاملا غير رمضان فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال صدقت. أخرجه مسلم في صحيحه.

ونزل القرآن **{يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}** * **{قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً}** * **{نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً}** * **{أَوْ زِدْ عَلَيْهِ...}** [المزمل: 1-4] حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، قاموا حتى ورمت أقدامهم وسيقانهم، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر أو عام فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم فردّهم إلى الفريضة وترك قيام الليل لمن استطاعه. حتى نزلت: **{... فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ...}** [المزمل: 20] قال فاستراح الناس.

وفي رواية أخرى أنه لما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ **{يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}**، مكث النبي ﷺ على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه. فأنزل الله تعالى عليه بعد عشر سنين. {}**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ...}** [المزمل: 20] – إلى قوله تعالى – **{... وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ...}** فخفف الله تعالى عنهم بعد عشر سنين.

وجاء عن ابن عباس في قوله تعالى **{قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً}** * **{نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً}** [المزمل: 2-3] فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفّف الله تعالى عنهم ورحمهم فأنزل بعد هذا بفترة من الزمن الآية الأخيرة في السورة.

{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المزمل: 20].

فلماذا سقطت من حساب المسلمين هذه الحادثة؟ ألم يقرأوا السورة؟ أم أصبح عدم معرفتنا لتفسيرها هو السبب في جهلنا لأهميتها وأهمية ما جاء فيها عن صلاة القيام.

الآية التي جاء فيها نعي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه

هل تعلم ما هي الآية التي جاء فيها نعي رسول الله ﷺ؟

إنها سورة النصر.. مع أنك إن قرأتها لا يتبادر لذهنك خبر عن نعي فيها، لكن ابن عباس ابن عم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان يملك من البصيرة أكثر من غيره بدعوة النبي له، فكان الوحيد من بين الصحابة المفسرين للقرآن من أدرك هذه الحقيقة بعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

قال النسائي عن ابن عباس: لما نزلت **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [النصر: 1] قال نُعيت لرسول الله ﷺ نفسه فأخذ في أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة. وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء الفتح وجاء نصر الله وجاء أهل اليمن». فلو جاء لأحدنا نعيه تراه سيكون على ثبات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بعد أن تلقى نعيه؟ نسألك اللهم الثبات والرضا عند انقضاء الأجل.

وقال البخاري عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي».

وعن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت يا رسول الله رأيتك تكثر من سبحان الله وبحمده، لا تذهب ولا تجيء ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت: سبحان الله وبحمده قال: إني أُمرت بها فقال: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ**

وَالْفَتْحُ} * **{وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}** * **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}** [النصر: 1-3].

وقال الإمام أحمد: حدثني جار لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبدالله فسلم عليّ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس ومما أحدثوا فجعل جابر يبكي ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً»، فهل كان يعني زماننا هذا؟ حيث ما عاد المسلمون يعلمون عن الإسلام إلا اليسير من مظاهره ولحى تخفي تحتها ما لا يعلمه إلا الله..

أغلى ما تملك

لا يحدد ما تملكه ما يمكنك أن تفعله أحياناً تملك الكثير، ولا يمكنك فعل شيء، وأحياناً أخرى لا تملك شيئاً وتستطيع فعل كل شيء.

فأن تملك جناحين، لا يعني أنك يمكن أن تطير.

أن تملك قدمين، لا يعني بأنك تستطيع أن تسير.

وأن تملك يدين، لا يعني أن بمقدورك أن تعطي.

وأن يكون لك عينان، لا يعني أنك ترى كل شيء.

وأن تملك قلباً، لا يعني بأنك يمكن أن تحب.

وأن تحب لا يعني بأنك سعيد.

وأن تملك حلماً، لا يعني أنه ممكن التحقيق.

وأن تملك قلماً لا يعني أنك يمكن أن تفعل المستحيل.

ولكن أن تملك إيماناً ويقيناً بالله، فذلك يعني أنك تستطيع أن تفعل كل شيء دون استثناء بفضل رب كريم.

فالإيمان هو مصدر الطاقة التي يستمد منها الإنسان القوة والنور الذي يضيء لنا طريقنا إلى الحق والنجاح كي لا نضيع بين السبل الكثيرة الملونة بألوان الحق أو الباطل **{... مَا كُنْتَ**

تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا...} [الشورى: 52].. **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ...}** [يونس: 9]. فتخيّل إيمانك بربك يمسك بيدك ويدلك على الخير لتفعله، ثم يدعوك إلى دخول الجنة.

إلى كل مغترب

ما هو ثواب المغترب والمهاجر في سبيل الله؟

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الحج: 58].

هذه الآية من أروع آيات القرآن الكريم، وقد بكيت كثيراً عندما قرأت تفسيرها، لذلك أحببت أن أتحدث عنها لأنها تشمل الكثيرين ممن هاجروا وتركوا بلادهم وأهلهم وبيوتهم.

يخبر تعالى من خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلباً لما عنده وترك الأوطان والأهلين والخلان وفارق بلاده في الله ورسوله ونصرة لدين الله ثم قُتِل أي في الجهاد أو مات أي حتف أنفه من غير قتال على فراشه فقد حصل على الأجر الجزيل والثناء الجميل كما قال تعالى: **{وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}** [النساء: 100].

والمراغم هي المهرب من مكان إلى آخر، وسعة يعني في الرزق، وقوله **{... لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَناً...}** أي إن ماتوا في هجرتهم لأي سبب كان فقد وقع أجرهم على الله، وليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم **{... وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}**. وقد جاء في الحديث الشريف «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرءِ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». صحيح إن ما يجعلنا بعيدين عمن شملتهم هذه الآية هو النية، فلكل منا سبب مختلف دفعه للرحيل. ولأنني أحببت أن أكون من هؤلاء بحثت عن رابط يشدنا إلى هذه الآية ويجعلنا ممن ينال هذا الثواب العظيم ووجدت الحل وهو تصحيح النية وموقعها القلب.

هذه دعوة مني إلى كل من هاجر من بلده لأي سبب كانت هجرته وفي أي ظرف اضطره إليها، أن يصحح النية ويجعلها لله وحده وليقلْ: يا رب إني هاجرت من بلدي وأهلي إليك وابتغاء مرضاتك طمعاً بما عندك من الفضل فوفّقني في هجرتي واجعلها في سبيلك وإليك.

عسى ربي أن يجعلني وكل من هاجر في من قال فيهم ربنا الكريم جل جلاله هذه الآية الكريمة، فننال من رحمته ورزقه في الدنيا والآخرة، وليقع أجرنا على الله في كل معاناة أو هم يصيبنا فيها. وكي نكون حتى في موتنا ممن وقع أجرهم على الله بإذن الله.

لا تتعلق بمن تحب

لماذا كلما أحببنا شخصاً وأحسسنا بأنه نقطة ماء تروي ظمأ صحرائنا القاحلة يبتعد أو يغيب؟

ما سر ابتعاد سيدنا يوسف عن أبيه؟ هل هو امتحان لهما؟ أم أن السبب هو تعلق الأب الزائد بابنه؟

الحقيقة، والعلم عند الله، هي أن تعلق الإنسان بمن يحب بلا حدود هو شيء خاطئ حتى مع الأنبياء. فابتعاد سيدنا يوسف عن أبيه يعقوب دفعه إلى التعلّق الشديد بابنه الآخر بنيامين وتسبب ذلك في ابتعادهما معاً عنه كي يتعلم الدرس، ويأخذ العبرة كل من أحب شخصاً وتعلق به من قصة يوسف. فابتعاد أبناء يعقوب عن أبيهم سبب له الأذى الشديد والحزن والبكاء حتى ابيضت عيناه من الحزن فأصبح أعمى.. **{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَال ياأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}** [يوسف: 84].

لا بد أن هناك عبر جليلة غابت عن الكثيرين في تخصيص الله عَزّ وَجلّ سورة كاملة ومفصلة عن قصة سيدنا يوسف وأبيه وإخوته. هل كان إبعاد ابني سيدنا يعقوب عنه عقوبة له وهو نبي؟ أم هو اختبار؟ أم درس يتعلم منه الأجيال من بعدهم أن للحب حدوداً؟

تُرى هل ابتعاد من نحب عنا هو عقاب أم اختبار لمدى صبرنا على فقدان من نحب؟

أم أن الأقدار تبخل علينا بروح تواسي روحنا فتتعمد أن تجرحنا وتترك في مآقينا عبرات تلمع فيها أحزان الفراق؟

لا أيها القلب الذي اكتوى بنار الشوق وتألم! ليس القدر بخيلاً ولا الزمن علينا ضنيناً، ولكن الله أرادنا أن نعرف أن من تعلق به قلبنا ليس سوى إنسان ضعيف، لا يمكنه أن يبقى بجانبنا إلى الأبد ولا يستطيع أن يرفع الحزن عن قلبنا إن هو غاب عنا. فهو في النهاية إنسان يمكن أن يبتعد أو يغيب كآخر شعاع دافئ في يوم بارد كئيب، يختفي في لحظة كبسمة على ثغر حزين، كوردة ذبلت بعد عمر قصير، فمن يبقى لنا بعده ليمسح الدمعة عن الوجه الحزين؟ لا يبقى سوى الله، هو الأول والآخر، هو الباقي بعد كل شيء وفي كل زمان ومكان. هو باقٍ في كل نبضة من قلوبنا وفي كل تنهيدة ونفس، هو أقرب إلينا من كل الناس.. **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** [ق: 16].

الله موجود منذ الأزل، يعطينا الحب والدفء، يطفئ نار الحزن. ينسينا من غاب عنا لنتذكر دائماً أنه موجود معنا... هو لا يغيب، وحب لا يفتر، وعطاء منقطع النظير ورحمة وحنان.. يذكرنا فننساه؛ يهدينا عندما نضيع ونطلب الهدى من سواه؛ يمد يده لنا وينادينا كل مساء، فنتركه ونبحث عمن انشغل عنا وأدار ظهره إلينا.

يدلنا إلى طريق السعادة ويمنحنا أسبابها، ويجدنا نتلمّسها عند سواه. يغدق علينا نعمه فنأخذها وننسى حتى شكره. قمة العطاء لنا وله منا كل النكران، نتعلق بغيره ونأبى أن نسعد إلا مع سواه فيبعد عنا من ألهانا عن ذكراه.

لا يريد تعذيبنا بل يطلب منا ألا نتعلق بمن نحب كثيراً فحتى الحب له حدود. يعلمنا أن نحب بتعقّل وأن نكره بتعقّل فلا نتجاوز كل الحدود، ويضع أمام عيوننا احتمال الفراق كي لا يدمرنا غياب من نحب عن حياتنا لأي سبب من الأسباب، وليبقى يقيننا بالله وبأنه صاحب الفضل الأول والأخير علينا، وأنه باقٍ معنا حتى بعد أن نغيب عن الدنيا وننتهي إلى الزوال.. فالخلود لله وحده لا لشيء بعده أو سواه.. وقد ذكر الله الموقف العظيم بعد أن يفنى كل شيء: الأرض والسماء والخلق كلهم، ويبقى الله وحده فيقول عَزّ وَجلّ: **{... لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** [غافر: 16] فليس خطأً أن نحب ولكن التعلق الزائد بمن نحب يجب أن لا يشغلنا عن عبادة الله كما يستحق. فعندما ألهت الخيول سيدنا سليمان عن الصلاة عاقب نفسه بقتلها وألغى وجودها كي لا يكون حبه لها سبباً في نسيان أداء الصلاة لله **{إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}** * **{فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ}** * **{رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ}** [ص:

31–33] فكان كرم الله عليه أكبر من تضحيته فأعطاه الله ملكاً وسخّر له من الشياطين والريح وأشياء لم يسخرها لأحد من خلقه مكافأة له على إخلاصه في حبه لله ونبذ كل ما يبعده عنه. فعندما تحب الله بطريقة مميزة يقابلك الله بحب وعطاء مميّزين أيضاً. **{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} * {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ}** [ص: 36–37].

فلأن كل من نحب قد يبتعد أو تتغير مشاعره تجاهنا، أو يموت، أو يغيب؛ ولأن كل من أحببنا قد يتخلى عنا بإرادته أو غصباً عنه؛ ولأنه هو راحل ونحن راحلون؛ ولأن البقاء الأزلي هو لله وحده ولا لأحد سواه؛ لذلك يجب أن نفكر بهذه الطريقة كي نحمي أنفسنا من الألم ونحمي يقيننا بحقيقة وجود الله ومعنى الخلود الكائن فيه وحده. ونحمي من نحب من أن يبعده الله عنا ليصلح إيماننا ويجعلنا نعود إليه وندرك أننا يجب ألا نتعلق بمن نحب إلى الحد الذي يجعلنا ننهار من دونه وألا نتعلق لهذا الحد إلا بالله وحده، فهو الباقي بعد كل شيء ولا يتخلى عنا. وأقل ما نرد به على كرمه هو أن لا نتعلق بغيره وأن لا نحب غيره كما نحبه، ليس خوفاً من بطشه ولا طمعاً بجنته وإنما اعترافاً بفضله ويقيناً في روحنا أنه وحده من سيبقى بعد أن يفنى الوجود.. لا يتخلّى عنا ولا يغيب ولا ينتهي.. هو من علمنا أن نحب، فهلاّ أحببناه أكثر من سواه؟

علاج للروح الحزينة

متى كانت المرة الأخيرة التي تكلمت فيها مع الله؟ هل تحدثت إليه من قبل؟ هل جربت أن تخبره عما يجول في خاطرك؟

هل حاولت أن تشرح له ظروفك وأن تتكلم معه بصدق لأنه لن ينفع معه الكذب أو التظاهر؟ هل تجردت من كبريائك بين يديه وشعرت بأنك أمامه دون حواجز أو مسافات أو ألقاب؟ هل نزعت الألم من صدرك والعبء الجاثم على كتفيك ورميته بين رحمته وعطفه عليك؟ هل شكوت إليه من أساء إليك؟ هل أحسست بحنانه يلمس قلبك فيطفئ نار الغضب المستعرة فيه كي لا تحرقك وتحرق كل شيء من حولك؟ هل حملت جراحك وذهبت إليه؟ هل التمست الشفاء في التقرب إليه؟ هل خذلك كما فعل كثيرون؟ هل عاتبك أو أساء إليك؟ هل سألته عن أشياء تتمنى أن يخبرك بها؟ وهل سمعت منه ما يقول؟ هل رد عليك؟ وهل سمعت منه!؟

سأدلك أين تجد كل الإجابات وكل الحب والمساعدة، ومن يشرح لك كل شيء، وستجد نفسك على الطريق الصحيح، ولن تضيع أبداً وأنت بين يديه.

افتح كتاب الله واقرأ كلامه وردّده يصل المعنى إلى قلبك ووجدانك، ويشحن روحك بالأمل ويزح الغشاوة التي تغطي عينيك ويمسح وجهك بنور الإيمان ويملأ نفسك بالرضا. ولكن حاول أن تنقي قلبك بالاستغفار كي يتنفس ويسمع ويفهم ويحيا بنور الله، ولا تدعه يختنق تحت ثقل الذنوب المتراكمة عليه.. هكذا تكون المناجاة بين العبد وربه: أن تناديه وتتحدث إليه، دون تحفظ، وهي تشبه كثيراً مناجاة زكريا لربه لما نادى ربه نداءً خفياً وشكا إليه حاله وما يهمه من أمر عدم وجود وريث له، فاستجاب ربه لدعائه وسمع مناجاته وأعطاه سؤله بكرم ووهب له ابنه يحيى، ولم يهتم

لكونه شيخاً كبيراً وكون امرأته عجوزاً. كذلك لم يفكر زكريا بالزواج من فتاة صغيرة تنجب له بدل زوجته العجوز بل لجأ إلى مناجاة ربه فاستجاب له ربه **{يَازَكَرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}** [مريم: 7].

متى ستنتهي معاناة المرأة مع الرجل؟

بالرغم من كل القوانين الوضعية هل انتهت مآسي البشر على مر العصور ومنذ قديم الأزل؟

غيروا القوانين واخترعوا قوانين تضمن حقوق المرأة هي برأيهم أفضل من القوانين التي أنزلها الله خالق البشر؛ طالبوا بالمساواة وبإعطاء المرأة الحرية الكاملة لتفعل ما تشاء دون خوف من المجتمع ولا حتى من الله عَزّ وَجلّ. نعم هذا ما فعله الغربيون ولكن هل نجحوا في حماية المرأة؟ لقد باءت كل محاولاتهم بالفشل.. والآن نسمع ونرى في برامجهم وفي أفلامهم التي تعرض قصصاً واقعية حدثت في مجتمعاتهم أن نساءهم – ومنهم المذيعة أو الممثلة نفسها – قد تعرضن للاغتصاب، والكثيرات تعرضن للعنف المنزلي، والكثيرات أصبحن بنات سوء يبعن الهوى، والكثيرات قُتلن ولا ننسى المجرمات والمنحرفات.

كل القوانين التي وضعوها لم تفد النساء في شيء، وكل الحريات التي بلا قيود جعلت من المرأة الضحية الأسهل وفتحت المجال لظلمها أكثر وأبعدت الحماية عنها، ولم تستطع جمعيات حقوق الإنسان والمرأة والطفل حمايتها من الرجل فأصبح الأزواج يتركون عائلاتهم ويختفون. هكذا وبكل بساطة يتركون مسؤولية النفقة على الأولاد والتربية والمدارس وكل شيء يُلقى على المرأة، هذا إن تزوجوها أيضاً! لأن الكثيرين منهم يعيشون مع المرأة وقد ينجبون منها أولاداً دون زواج لشدة ما يخافون من الارتباط الذي يلزمهم بالقليل القليل من الواجبات تجاه الزوجة والأولاد.

أما الإسلام فهو النظام الأكثر احتراماً وتقديراً للمرأة وحفاظاً عليها وعلى حقوقها، فهناك إلزام كامل للأب بأولاده مادياً ومعنوياً، ولا يوجد هجر في الإسلام، وتجب نفقة الأم على ابنها وكذلك

الزوجة والأولاد. ومع ذلك نجد حتى بعض المسلمين، الذين يخضعون لقوانين إلهية صحيحة منصفة وعادلة يهملون واجباتهم ويظلمون زوجاتهم وحتى بناتهم وينسون أمهاتهم.

ولسنا في مجال المقارنة هنا، ولكني أردت أن أقول إن المشكلة ليست في القوانين، ولا المشكلة في تحرير المرأة من قوانين وضعها الله لحمايتها، ولكن المشكلة في نفوس البشر وأخلاقهم. لأن الرقيب أولاً وأخيراً هو الله الذي ترك لنا الكتب السماوية وآخرها القرآن الذي ينمي فينا الضمير ويصحح أخلاقنا ويتممها ويقوي إيماننا بالجزاء والعقاب من الله وهذه هي التقوى. لكن لما طُمست الأخلاق وغاب الضمير وبهتت مخافة لله نبت الشر في النفس البشرية وأخذ يتملكها أكثر فأكثر، وهذا ما نتج عنه الفظائع من الأفعال من قتل وظلم..

فالله منذ خلق هذه الدنيا، خلق فيها الخير والشر، وجعل الخير مع الشر في معركة أزلية ما دامت الدنيا قائمة وإلى آخر يوم فيها. وهذا الشر قد يكون ربيب أنفسنا وأهوائنا.. أو يأتينا من أشخاص آخرين يحاولون جرنا إلى أعمال تدمرنا وهم ما يُسمى بشياطين الإنس قال تعالى: **{... بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}** [البقرة: 36].

أي سيبقى هذا الصراع إلى اليوم الذي يحاسب فيه البشر أي يوم القيامة، وهذه الحياة إنما هي اختبار يتفاوت في صعوبته بين إنسان وآخر، ولا تخلو الحياة فيه من المعاناة والصدام بين الخير والشر. جاء في الآية الكريمة
{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الكهف: 7]. والآية التي استشهد بها الرئيس الأمريكي باراك أوباما في خطابه ولكنه لم يكملها، والعبرة فيما ترك: **{... وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...}** [الحجرات: 13].

فالمقياس في صلاح الأمم هي الأخلاق المتعارف عليها عند كل البشر، وهي نفسها التي أمرنا الله بها. لكن لا بد من أن وجود الشر وازدياد تأثيره في الناس مؤخراً سواء المسلمين أم غير المسلمين هو الذي سبّب هذه الحروب والصراعات. خصوصاً أن ضمائرنا، التي هي الضابط الرئيسي لتصرفاتنا، أصبحت مريضة عند الكثيرين، وتقوى الله في قلوب المسلمين هي الرقيب على أفعالنا، فكلما تمسكنا بآداب القرآن وتخلّقنا بخُلُق الإسلام وفهمنا مغزاه أنقذنا أنفسنا وغيرنا من أن نظلم أو نُظلم، أو أن نسبب الأذى لأنفسنا أو لغيرنا، وهكذا ننجو في الدنيا والآخرة أيضاً.. ولا بد

لنا أن نبدأ بأنفسنا قبل غيرنا ونربي أولادنا على الضمير والأخلاق والإيمان وتقوى الله ثم نساعد غيرنا ممن تاه عن طريق الحق أو ممن حملت نفسه بذور الشر وصار عبداً لنفسه وأهوائه.

هكذا ننهض بمجتمعنا ونقترب من الإسلام بدل أن نبعده عن حياتنا وتفكيرنا وحياتنا وتفاصيلها. فكلما عزّزنا الإسلام في قلوبنا أعزنا الله به، وكلما تمسكنا بما جاء في كتاب الله استطعنا محاربة بذور الشر في دواخلنا قبل أن تنبت وتؤذي كل من حولنا. فالشر موجود منذ خلق الله البشر لكنه بعث لنا ما نحارب به هذا الشر كي لا يستفحل ويغلب على النفوس، لكن في آخر الزمان، وبعد أن يترك الناس آخر شعلة نور بعثها الله إليهم، سيعم الظلام والشر.. وعندها ستقوم الساعة على شرار الناس. والله أعلم.

ذنوبنا كيف تؤذينا؟

لماذا أوصانا سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ بالاستغفار كل يوم؟

لأننا نذنب وتتراكم ذنوبنا دون أن نشعر خصوصاً في هذا الزمان، حيث أصبح ارتكاب الذنوب أكثر تداولاً وسهولة؛ فيكفينا مشاهدة بعض الأفلام والمسلسلات ومشاهد الزنا والميسر والخمر والنساء الكاسيات العاريات فيها، حتى تتراكم على قلوبنا الذنوب. أو يكفينا حضور اجتماع كبير للأصدقاء والأقرباء والمعارف ثم التحدث عنهم بأسوأ ما عملوا حتى تتراكم الذنوب على قلوبنا. والحقيقة المرعبة أن الله عَزّ وَجلّ يعاقبنا على كل ذنب إما في الحياة الدنيا وإما في الآخرة كما جاء في الآية الكريمة: **{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا}** [النساء: 123].

قالت العرب: لن نُبعث ولن نُعذب، وقالت اليهود والنصارى **{... لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى...}** [البقرة: 111] وقالوا **{... لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ...}** [آل عمران: 24].

الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، وليس كل من ادّعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه على الحق، سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان. ولهذا قال تعالى: **{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ...}** أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام ولهذا قال بعده **{... مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ...}** كقوله **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}** * **{وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** [الزلزلة: 7-8] فلسنا نحن من يقرر.

وقد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة. قال الإمام أحمد: أخبرت أن أبا بكر رضي اللَّه عنْه قال: يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية **{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ...}** فكل سوء عملناه جُزينا به، فقال النبي ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟» قال: بلى، قال: «فهو مما تجزون به».

وقال الإمام أحمد: سمعت أبا بكر يقول: قال رسول الله ﷺ: «من يعمل سوءاً يُجزَ به في الدنيا».

لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: جاءت قاصمة الظهر، وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأينا لم يعمل السوء وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه. فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يُجزوا به يوم القيامة». رواه الترمذي.

فمن رحمته أن تصيبنا المصائب في الدنيا كي تكفر عن ذنوبنا والأسوأ هو ألا تصيبنا المصائب ولا تُكفّر الذنوب فنجد عذابها بالآخرة.

وجاء في حديث آخر عن عائشة أن رجلاً تلا هذه الآية: **{... مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ...}** فقال إنا لنجزى بكل ما عملناه هلكنا إذاً. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «نعم يُجزى به المؤمن في الدنيا في نفسه وفي جسده وفي ما يؤذيه».

لذلك فهذه الآية من أشد الآيات لأنها تتضمن ذلك المعنى العادل بأنك كلما أخطأت ستُعاقب على خطئك. قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة هذه مبايعة الله للعبد مما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة حتى البضاعة فيضعها في كمه فيفزع لها فيجدها في جيبه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما أن الذهب يخرج من الكير». (والمعنى إذا خبأ شخص المال في جيب ثم لم يجده وخاف ضياعه ثم وجده في جيب آخر، فهذا الخوف هو تكفير لبعض الذنوب).

وقيل «إن المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في القبض عند الموت». حتى إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه.

فكل ما يعرض لنا في دنيانا لنا به أجر إن صبرنا ولم نتهم ربنا بالقسوة والظلم وعدم الرأفة بنا، فكل ما يصيبنا جرائر ذنوبنا، فهلاّ رحمنا أنفسنا وتجنّبنا الذنوب.

عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية **{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ...}** بكينا وحزنا حتى أخبرنا رسول الله بأن «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر الله من سيئاته».

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا ما لنا بها قال: «كفّارات».

فربما يكون على أحدنا ذنوب كثيرة لم يستغفر عنها فتصيبه مصائب الدنيا كي يطهره الله من هذه الذنوب.

عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله **{... مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ...}**؟ قال: «نعم ومن يعمل حسنة يُجزَ بها عشراً». فهلك من غلبت واحدته عشراته.

عن ابن عباس إلا أن يتوب فيتوب الله عليه، والصحيح أن ذلك عام في جميع الأعمال لما تقدم من الأحاديث، فباب التوبة مفتوح وربنا غفور رحيم، لكن الناس يقولون من أين تأتينا المصائب؟ ويظنون أن الله كتب عليهم الشقاء ولغيرهم السعادة. ولكن الحقيقة أن أعمال الناس تتفاوت، وكل منهم ينال بما اقترف من ذنوب مصائب ليكفر الله بها عن ذنوبه، أو ينال بما يصيبه من مصائب الأجر والثواب على الصبر، وتكون هي اختبار لإيمانه بربه وثقته به.

ولكن لا يظن الإنسان أن ما عمله من سوء سيمر ولن يعاقب عليه، فليتقِّ الله ولا يذنب الذنب متعمداً ويقول: سيغفره الله لي فالله يغفر لمن يشاء.. وما أدراك أنك ممن يشاء له المغفرة أو العقاب؟

«ومن يشاء» تتضمن إرادة التوبة الحق وعدم الرجوع إلى الذنب مرة أخرى. هذا الشرط كي تقبل التوبة ويكون العبد ممن شاء له الله المغفرة، ذاك هو من أراد التوبة وشاء له الله المغفرة، وعندها يعينه الله عز وجل على الثبات وعلى التوبة ويقبلها منه. فالله أعلم بحقيقة نوايانا فيحاسبنا على ما علم منها ويجازينا على ما عملنا بما شاء. **{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ**

أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} * {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 80-81].

وهؤلاء ممن غرتهم الأماني يذنبون ويتمنون المغفرة، أما كان من الأولى أن يحاول الإنسان أن يتجنّب ما حرّم الله فالطمع بمغفرة الله ساق الكثيرين على الجرأة على الله في فعل الذنوب بدل الانتهاء عنها. لكن إن وقع الإنسان في ذنب فباب الاستغفار والتوبة مفتوح، ولا يغلق حتى يموت الإنسان أو تشرق الشمس من مغربها.

والتوبة تعني النية بعدم الرجوع إلى الذنب، فإن لم نتب وننوي عدم العودة لمثل هذه الذنوب فلا نضمن المغفرة.

فلنحرص أن تأتينا المنية ونحن على توبة ولسنا على ذنب. غفر الله لنا ولكم وجعل خاتمتنا على الشهادة.

هل تبكي السماء والأرض على أحد؟

قال تعالى: **{فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}** [الدخان: 29]. من الطبيعي أن يحزن الإنسان على فقد شخص أحبه، أو حتى شخص لم يعرفه ولكن سمع عنه. لكن أن تحزن الأشياء كالأرض على أشخاص عاشوا عليها، هنا تكمن الغرابة! فهل تشعر بنا الأرض؟ وإن شعرت بنا الأرض فكيف تعرفنا السماء؟

أما الأرض فتعرفنا الأماكن التي صلينا فيها وذكرنا الله عليها فهي شاهدة علينا بما عملنا على أظهرها حين ينطقها الله يوم القيامة. وأما السماء فلكل إنسان باب يرتفع منه عمله الصالح، وتنادي الملائكة باسمه: هذا عمل فلان. فتعرفه ملائكة السماء من اسمه وعمله فتفتح الباب وتتسلم عمله وترفعه إلى الله تبارك وتعالى.

هكذا تعرف السماء كل عبد ذكر الله أو عمل صالحاً. أما إن لم يكن الإنسان مؤمناً بالله فلا يكون له باب لتمر منه أعماله وترتفع إلى الله. حتى وإن عمل أعمالاً صالحة، فالأعمال الصالحة لغير المؤمن يجازى بها في الحياة الدنيا بالخير لكنها لا ترتفع إلى الله لأنها لم تكن لوجهه الكريم.

فالأرض والسماء قد تكون أكثر وفاءً من أشخاص عرفناهم وأحسنا عشرتهم، ولم تتسع قلوبهم لحبنا، وإن غبنا عنهم لم يذكرونا بخير.

أتى ابن عباس رضي الله عنْهما رجل فقال يا أبا عباس أرأيت قول الله تعالى: **{فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}** [الدخان: 29] فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال رضي الله عنْهما: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه،

فقده ذلك الباب وبكى عليه. وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله عَزّ وَجلّ فيها بكت عليه. وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة ولم يكن يصعد إلى الله عَزّ وَجلّ منهم خير، فلم تبكِ عليهم السماء والأرض.

وعن ابن عباس رضي الله عنْهما قال: كان يُقال تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحاً. وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً. قال: فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لذكره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل.

وقيل إن بكاء السماء احمرارها.

وقد غالى بعض المسلمين عندما توفي إبراهيم ابن رسول الله ﷺ إذ خسفت الشمس بعد وفاته فقال بعض المسلمين أنها خسفت لموت ابن رسول الله، فخطب فيهم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم بعد صلاة الكسوف وأوضح لهم أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد.

هكذا هي السماء والأرض تحملان وفاء أكثر من بعض البشر.

آية نخطئ في تفسيرها

كلنا نقع في أخطاء كبيرة ونتخذ قرارات خاطئة بسبب فهمنا الخاطئ لآية من آيات القرآن الكريم أو حديث شريف. فالكثيرون منا يعتقدون عندما يقرؤون قوله تعالى: **{لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا...}** [البقرة: 286].

أن الله لا يريد منا أن نضغط على أنفسنا، وأن لا نفعل إلا ما تحب نفوسنا أو ما تقدر على فعله، دون أن نضغط عليها. فيترك كل منا نفسه على هواها، لا يكلفها ما لا تحب فعله ولا يضغط على نفسه لتقبل وتتحمل ما لا يرضيها من قضاء الله وقدره.

وإن قلت للشخص اضغط على نفسك يقول لا أستطيع ويضيف: **{لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا...}**. وللأسف كلنا مخطئون. الآية لا تعني ذلك، وإنما تعني أن الله لا يكلفنا بعمل إلا وهو يعلم بقدرتنا على تنفيذه، فلا يكلفنا بما لا تطيق نفوسنا فعله. وهذا لا يعني بأنه لا يكلفنا بأشياء صعبة، فالصيام صعب في حر الصيف ولكننا مكلفون بصيامه لأننا نستطيع تحمله إذا ضغطنا على أنفسنا. لكن لماذا نضغط على أنفسنا ونقبل بما ابتلانا الله به؟ لماذا لا نتهرب من مسؤولياتنا عن ابن معاق أو أم خرفة أو أخ متخلف عقليا أو أب مجنون أو زوج ساخط لا يرضيه شيء أو ولد عاق؟

نحن نقبل بهم لعلمنا بأن الله اختصنا بهذا البلاء ليختبرنا ويختبر إيماننا فإن سخطنا سخط الله علينا، وإن رضينا رضي الله عنا وأرضانا. فالله ليس ظالماً وظلمنا بما ابتلانا به، حاشاه.. لكنه يختبرنا ويختبر أخلاقنا والتقوى في قلوبنا **{وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}** [آل عمران: 141].

فلا يبلو الله شخصاً بابتلاء إلا وقد سبق في علمه قدرة هذا العبد على القيام بما كلفه الله به. **{لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا...}** [البقرة: 286] أي لا يكلِّف أحداً فوق طاقته وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم.

وكان الصحابة قد أشفقوا على أنفسهم لما نزل قوله عَزّ وَجلّ **{... وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ...}** [البقرة: 284] أي هو يحاسب ويسأل ولكنه لا يعذب بما يحدث المرء به نفسه إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه وإبعاده من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان. وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان فيحاسب الإنسان على ما فكر ولا يعاقبه الله إلا على ما فعل، فالفعل شرط لوجوب العقاب وليس التفكير أو الوسوسة. وقوله **{... لَهَا مَا كَسَبَتْ...}** [البقرة: 134] أي لكل نفس ما كسبت من عمل الخير **{... وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...}** [البقرة: 286] أي من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف. فلما كلفنا الله بطاعة الوالدين وكلف المرأة بطاعة زوجها علم أن ذلك سيكون صعباً على بعض الناس فجعله اختباراً لهم، وهو برغم صعوبته إلا أن النفس تستطيع عمله.

وقد علمنا الله عز وجل في الآية نفسها أن ندعوه كي لا يكلفنا ما لا طاقة لنا به، فقال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: **{... رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...}** [البقرة: 286] أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان أو فعلنا حراماً بجهل دون أن ندري بحرمته أو أخطأنا عن الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي فلا إثم علينا، ويجب تحري الصواب. لكن إن أخطأنا بعد تحري الحكم فهذا ما نحاسب عليه. وقد رفع الله عَزّ وَجلّ عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام الخطأ والنسيان وما أُكرهوا عليه. وهذا من كرم الله على أمة سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وقد كان هذا الفضل خاصاً بالأنبياء فقط. ومن فضل الله أن كرم أمتنا المسلمة بأن عفا عن كل ذنب عمله صاحبه بجهل أو خطأ. لكن من ابتلاه الله بولد معاق فقد كلفه الله برعايته وهو يعلم أن عبده المبتلى قادر على ذلك لكنه صعب عليه، وصعب على نفسه أن ترضى بهذا التكليف وهذا القضاء. ونجد كثيرين يتخلون عن رعاية طفل معاق كهذا. وهناك من ابتلي بأب أو أم أو زوج أو زوجة ذوي طبائع صعبة أو أخلاق سيئة يستحيل إرضاؤهم، ويصعب التعايش معهم. ولكنهم أيضاً مكلفون بالطاعة وعدم الإساءة لهم. وإنما

هو ابتلاء الله لعباده بعضهم ببعض؛ الابتلاء الذي تُقدّر به منازلهم: **{... ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ...}** [محمد: 4].

فقد ابتلى الله العبد وهو يعلم بقدرته على تحمل ما ابتلاه به، ويعلم أنه يستطيع أن يتعامل مع سوء ما ابتُلي به بالرغم من صعوبته، إلا أن هذا التكليف فيه اختبار للعبد ولحسن خُلُقه في تعامله مع هؤلاء الأشخاص والتعامل مع ما ابتلاه الله به وقبوله الابتلاء وجهاده فيه في سبيل إرضاء الله، والطريقة التي يتصرف بها في ما ابتُلي به هي ما يحدد درجة إيمان العبد وتقواه وأخلاقه. ويكون وجود أشخاص كهؤلاء في حياته، بالرغم من سوء خلقهم أو إعاقتهم واحتماله لأذاهم وحسن تعامله معهم، هو نهر يغسل به ذنوبه ويغرف منه الأجر والثواب كل يوم، وإرضاؤهم وإن لم يرضوا هو سعي لرضا الله تبارك وتعالى.

أما سخط بعضهم على ما ابتلاهم الله به وهروبهم من المسؤولية وابتعادهم، أو سوء معاملتهم لهؤلاء الأشخاص والتعذر بعدم القدرة على ذلك، إنما هو ضعف في إيمانهم وسوء خلق منهم ومرض في نفوسهم وهزيمة لأرواحهم وسيطرة لوساوس الشيطان عليهم.

فلنهذبْ أنفسنا قليلاً ولنعلّمْها أن ترضى بما قدره الله لها ولنواجه اختباراتنا بشجاعة. ففي كل منها تحّدٍ لنا يمكننا الفوز به، بدل أن نهرب منها ونتقاعس. فالجنة لا ننالها بالتمني، الجنة محفوفة بالمكاره، لا ينالها إلا من اجتهد لها وزكى نفسه وهذبها ورضي عن الله فرضي الله عنه وأرضاه **{... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}** [البينة: 8]. وهذه الحقيقة لو علمناها وتيقّنتها أنفسنا لاجتهدنا فيما ابتلانا الله به.

الدعاء سلاح ذو حدين

كلنا نعلم أن استجابة الله لدعائنا كرامة وفضل من خالقنا علينا. **{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}** [غافر: 60]. هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة.

الله يغضب إن تركت سؤاله وابن آدم حين يسأل يغضب على قدر التناقض بين أن تطلب شيئاً من الرب، فإن لم تطلب منه يغضب منك لعدم اللجوء إليه، وبين أن تطلب من العبد سواء أكان غنياً أم فقيراً فينزعج منك خصوصاً إن كررت الطلب لعدم استجابته لك. هذا التناقض هو ما جعل الله متفرداً بالكمال والعظمة وجعله رباً يستحق أن يُعبد، واستجابته تعالى لدعاء عباده هو حق أقر به الله لعباده ولم يشترط لأجله الإيمان. فقد يدعو إنسان غير مسلم الله صادقاً ويستجيب الله له فيعجّلها له في الدنيا. وقد يدعوه عبد مؤمن فتتأخر الإجابة إما لخير قد سبق في كتاب الله وقدره، وإما لأن الله يدخرها له للآخرة. لكن لا تضيع دعوة عند الله ينطق بها إنسان إلا واستجاب الله له.

وقال قتادة: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلهم إلا لنبي: كان إذا أرسل الله نبياً قيل له: «أنت شاهد على أمتك»، وجعلتكم شهداء على الناس.

وكان يقال له: «ليس عليك في الدين من حرج». وقال لهذه الأمة: **{... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...}** [الحج: 78].

وكان يقال للنبي: «ادعُني أستجبْ لك» وقال لهذه الأمة: **{... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...}** [غافر: 60]. هذا هو الفرق بين أمة الإسلام وغيرها من الأمم فقد رفع الله قدرها حتى قاربت منازل الأنبياء والأولياء الصالحين.

وقال الإمام الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك – رضي اللَّه عنْه – عن النبي – ﷺ – فيما يروي عن ربه عَزّ وَجلّ قال: «أربع خصال، واحدة منهن لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادي: فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك عليّ فما عملت من خير جزيتك به، وأما التي بيني وبينك: فمنك الدعاء وعليّ الإجابة، وأما التي بينك وبين عبادي فارضَ لهم ما ترضى لنفسك».

قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: {... **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**}.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأل الله يغضب عليه». ولما مات محمد بن مسلمة الأنصاري، وجدنا في ذؤابة سيفه كتاباً: «بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: «إن لربكم في بقية دهركم نفحات، فتعرّضوا له، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبدا».

لذلك يستحب الدعاء بالخير للنفس والمسلمين الأحياء منهم والأموات ويكره الدعاء بالشر وقوله: {... **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي**...} أي: عن دعائي وتوحيدي، {... **سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**} أي: صاغرين حقيرين، كما قال الإمام أحمد. حتى فرعون عندما كان يغرق استغاث برب موسى فنجاه الله ببدنه، أي جعل جثته تعود بقدرته إلى الشاطئ، لأن دعاءه تأخر إلى لحظة الموت عندما أغلق باب التوبة.

ولأن الدعاء والطلب يعنيان معرفتنا الضمنية وثقتنا بقدرة من نطلب منه على عمل ما نريده منه وامتلاكه الأسباب التي تمكنه من فعل ما نطلب، لذلك فعدم الدعاء لله والطلب منه يتضمن عدم ثقتنا بقدرة الله على مساعدتنا، وتذليل الأسباب لحصول دعواتنا وتحقّقها، ويتضمّن التكبر والترفع على الطلب من الله، لذلك غضب الله تعالى ممن يتكبر عن الدعاء له.

عن النبي ﷺ قال: «يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم – يقال له: بولس – تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار» أعاذنا الله وإياكم من الكفر والكبر.

ولكن لننتبه! فالدعاء سلاح ذو حدين، فقد أمرنا الله بالدعاء ووعدنا بالإجابة ولكن معظمنا لا يدرون بأن استجابة بعض الدعوات التي ندعو بها لأنفسنا أو لغيرنا قد تكون سبباً لمعاناتنا ثم الندم عليها كل العمر. لأننا نظن بأن حصولنا على بعض رغباتنا سيسعدنا فندعو إلى الله ونلح بالدعاء ربما لسنوات، ثم تصادف لحظة إجابة وتُستجاب الدعوة، وعندما نحصل على ما نريد نكتشف بأن ما أردنا ما كان يحمل لنا الخير. بل إن حصوله هو سبب لتعاستنا فنندم في حين لن ينفعنا الندم، ونتمنى لو عاد بنا الزمان كي ندعو دعواتنا بشكل مختلف.

لأن الله غطّى عنّا الغيب برداء الستر وحجبه عن كل خلقه. فأصبح علمنا قاصراً ومحدوداً أمام علم الله، فهو الوحيد من لا يغيب عنه شيء من بداية الخلق إلى يوم القيامة. لذلك يستحب الدعاء بما نريد مع استخارة الله في الدعاء في كل شيء، لأن علمه سبق علمنا، وما يختاره لنا أفضل بكثير مما نختاره لأنفسنا. ومن ثم الرضا بما قضاه أو يسره لنا.

أما الحد الآخر لسيف الدعاء، فهو دعاء ندعوه في غضبنا عندما يكون الشيطان مسيطراً على جزء كبير من تفكيرنا فيهمس لنا بأدعية بشعة وفظيعة ندعو بها على أنفسنا وعلى أبنائنا وعلى من نحب فنظلم أنفسنا ونظلمهم ونؤذيهم. خاصة إذا وافقت الدعوة لحظة إجابة فاستجيبت، فنكون قد آذينا أنفسنا أو من نحب أذىً كبيراً. وهنا إن كان في ضميرنا بعض من روح فسنندم ولن ينفعنا الندم. وإن لم يبق من ضميرنا شيء، فسننقلب على ربنا ونقول له: لمَ فعلت هذا بنا وبأحبابنا وأولادنا. وندّعي بأننا رضينا بقضاء الله، ببراءة ونذرف دموعنا بسخاء وكأن القدر ظلمنا في هذه الحياة ولم نكن نحن من ظلم **{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** [يونس: 44].

ومن أسوأ العادات والأخلاق أن يدعو الإنسان على غيره فهناك من يقود سيارته ويدعو على كل من أزعجه في الطريق وهذا خطأ فادح فقد نهانا الرسول ﷺ عن الدعاء على أنفسنا إلا بالخير لأن الملائكة تؤمّن على ما نقول. في الحديث الشريف في صحيح مسلم: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمّنون على ما تقولون».

وفي حديث آخر عن اللعن فقد حدثنا جابر بن عبد الله فقال: سرنا مع رسول الله ﷺ فدنا عقبة – رجل من الأنصار – على ناضح له «دابة ليركبها كالحمار» فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدّن عليه بعض التلَدّن – أي لم يطعه ولم يمشِ – فقال له: لعنك الله، فقال رسول الله ﷺ: من هذا

اللاعن بعيره؟ قال: أنا يا رسول الله، قال: انزل عنه فلا تصحَبنا بملعون. «لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة نيل فيها عطاء فيستجيب لكم» حدثه الألباني وجاء في صحيح مسلم.

هكذا يصبح الدعاء سيفاً يجرح في كلا جانبيه وخطراً يجب استعماله بحرص شديد وحذر ودراية، ويجب أن نعي أننا مسؤولون عن كل كلمة ينطق بها لساننا. لذلك يجب أن تكون دعواتنا كلها بالخير أو من الدعاء المنقول عن سيدنا محمد ﷺ مما دعا به، أو الاستخارة في الدعاء عند طلب حاجة من حاجات الدنيا. ولنترك الدعاء بعيداً عندما نغضب كي لا نؤذي به أنفسنا ومن نحب.

في صف من أنت؟

قسم الله البشرية حزبين اثنين: حزب الله وحزب الشيطان. ورايتين اثنتين: راية الحق وراية الباطل. فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل. وهما صفان متمايزان لا يختلطان.

حزب الشيطان عرفهم الله تبارك وتعالى بأنهم من استحوذ الشيطان على قلوبهم حتى أنساهم ذكر الله وهم دائماً خاسرون {**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**} [المجادلة: 19]. أما حزب الله فهم المؤمنون، ليس أي مؤمن لكن هناك صفة أخرى مقترنة بالإيمان يجب أن توجد في إيمانهم حتى يكونوا من حزب الله.

هذه الصفة هي أنهم لا يتودّدون لمن لا يقف مع الحق حتى وإن كانوا أقرباءهم. فلا يجمعهم الانتماء إلى نسب ولا صهر، ولا أهل ولا قرابة، ولا وطن ولا جنس، ولا عصبية ولا قومية. إنما هي العقيدة، والعقيدة وحدها تجمعهم.

فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله. تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم، وتختلف عشائرهم وتختلف أسرهم، ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة. وتنتهي العنصرية هنا.

ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل، فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة. لا من أرض، ولا من جنس، ولا من وطن ولا من لون، ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهر. وهذه الرابطة هي التي عمل أعداء الإسلام على حلها وصهرها وأوجدوا بدائل زائفة عنها وأسموها قومية ووطنية وعشائرية ودينية وسنَّة وشيعة مسلمين ومسيحيين وعرب وأجانب.

ومع إيحاء هذه الآية بأنه قد يكون هناك في الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرابة وجواذب المصلحة والصداقة، لأشخاص غير مؤمنين. فهم ربما يكونون مسلمين لكنهم لا يقفون في صف الحق. حتى لو حكّمتهم في خلاف وقفوا مع الباطل ضد الحق ودافعوا عنه بكل قناعة. أولئك ينتفي عنهم الإيمان، فالمؤمن لا يقف في صف الباطل أبداً. والعكس صحيح فقد تعاشر أشخاصاً ليسوا من وطنك ولا من ملتك لكنهم لا يقبلون الباطل ويحبون الحق فهؤلاء هم تحت راية الحق وفي جانبك.

والله جل وعلا هنا يعالج في النفوس مثل هذا الوضع، فيضع ميزان الإيمان بهذا الحسم الجازم، والمفاضلة القاطعة. التي لا تقبل أنصاف الحلول.. وتزيل كل أنواع العصبية والتعصب للدين أو الوطن أو العرق.

ولما أصبح الناس يضعون موازين أخرى لعلاقاتهم ويجعلون ودهم وحبهم لأشخاص تربطهم بهم علاقات وروابط لا تتضمن الإيمان بالله ولا حتى بشكل جزئي في طياتها. هنا ضاع من المسلمين ميزان الحق وأصبحت موازينهم مائلة. فاعوجّت أحكامهم وتغيرت نظرتهم للناس وضاع منهم العدل وضاعت القدرة على التمييز بين المؤمن وغير المؤمن وبين الحق والباطل فلم يعد هذا شيء مهم الآن.

الميزان العادل الذي وضعه الله عز وجل في كتابه وأرسل به رسوله يقضي بما جاء في قوله تعالى: **{لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [المجادلة: 22].

طبعاً كان من الممكن أن يقول الله عَزّ وَجلّ, لا تبذلوا ودكم لمن يحادد الله ورسوله، ولكان صار فيها نهي، والنهي لا يترك مجالاً للاختيار. لكن الله عَزّ وَجلّ ترك باب الاختيار مفتوحاً وربط الود بالإيمان حيث يقول: شأن المؤمن أنه لا يوادد الذي يحادد الله ورسوله، لا يود وده إطلاقاً. فربط الود والمعاشرة بالإيمان، وهذا أبلغ وأعظم وأقوى من النهي. فهو لم ينهِ عن مودتهم ولكن ودهم ينفي صفة الإيمان عمن عاشرهم.. **{لاَ تَجِدُ قَوْمًا...}**. يعني من المستحيلات، أن تجد مؤمنا يتودد

إلى أشخاص لا يعني الإيمان لهم شيئاً، فالود في مثل هذه الحالة لا يكون مع الإيمان، هذا يتناقض مع الإيمان بل وينفي الإيمان. وينفي وجوده. ولكنه لا ينفي الإسلام.

وهناك شكل آخر للذي يحادد الله ورسوله، كما تحدث عنه النابلسي – أطال الله بعمره – فهو برأيه الذي يريد أن يطفئ نور الله ويريد أن يطعن في هذا الدين، وأن يقلل من قيمة القرآن الكريم، وأن يبين أن هذا الكتاب لا يصلح لهذه الأيام. العلماني الذي يعتمد العقل والقانون مكان الشرع والقيم الإسلامية، هذا الإنسان الذي يحادد الله ورسوله، ينصّب نفسه نداً لله عَزّ وَجلّ، يطعن في دينه، وفي كتابه وفي رسله وهو الذي يقف إلى جانب الباطل. فالمحادين لله ولرسوله هم الذين لا يقفون في جهة الحق بل يبتعدون عنه ويقفون في الجانب المعاكس له أي في جهة الباطل كثيرون هم في عصرنا **{إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ}** [المجادلة: 20] الذل في الدنيا والآخرة.

ومن ترك صحبة أولياء الباطل حتى وإن كانوا الآباء أو الأبناء أو الأهل والأصحاب فأولئك هم من كتب الله في قلوبهم الإيمان وقواهم به، جعلنا الله منهم.. هذه الآية هي الدليل الأوضح على أن الإسلام حارب العصبية والتعصب لأهل أو عشيرة أو وطن أو دين أو ملة ووحد الناس على حب الحق وحب الله ورسوله. اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندنا يداً ولا نعمة، ووحّد المسلمين تحت راية الحق.

التجسس لماذا نهى الله عنه؟

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: 12].

إن تسلسل الأحداث في هذه الآية يخبرنا الكثير من الحقائق، ففي البداية تحدث الله عَزّ وَجلّ عن الظن لأنه به تبدأ المشكلة. فالمرحلة الأولى هي همسة الشيطان في النفس فيظن الإنسان السوء بشخص، ثم يدفعه الشيطان عن طريق تكرار الظنون السيئة وربط أمور لا يجمعها شيء بعضها ببعض ونسج قصة غير حقيقية عن هذا الإنسان ما يقود إلى التجسس كي يثبت ظنونه ومخاوفه أو ينفيها، وهذا ما يقوده إلى النتيجة الحتمية وهي الغيبة. فما دام لا يملك دليلاً على ظنونه يفضل الكلام بالسوء عن هذا الشخص وعن ظنونه فيه في غيبته كي يشركنا في نسج تفاصيلها شخص آخر مع شياطين أخرى وكي لا يدافع هذا الشخص عن نفسه ويقتل هذه الظنون قبل ولادتها. لذلك نهانا الله عَزّ وَجلّ عن التجسس لأنه طريق خاطئ لإثبات أوهام وظنون خاطئة قد تقودنا إلى أخطاء أكبر وهي التحدث عن أوهام وأكاذيب عن شخص غير موجود ليدافع عن نفسه ثم التجسس عليه.

لكن الحقيقة هي أن هذا مدخل من مداخل الشيطان.

والتصرف الصحيح عند حدوث أي ظنون بثها الشيطان في النفس هو التكلم مع الشخص مباشرة واستيضاح الحقيقة منه وإن كان هناك أدلة يجب إظهارها له. أو يكون دائماً هناك الأحسن والأفضل من بين كل الحلول وهو المحافظة على العلاقة الطيبة وعدم إثارة الكره وجرح مشاعر

أحد، وذلك بمحاربة كل ظن سيئ باستبدال الظن الحسن به. هكذا نقضي على فتنة الشيطان في مهدها وإن كان هناك أمر سيئ فسيكشفه الله لك دون الحاجة إلى التجسس. قال تعالى: **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ}** [المؤمنون: 96].

كل المشاكل والحلول موجودة في القرآن لكنها تحتاج فقط إلى تدبّر من القلوب.

هل تعلم ما هو البيت المعمور؟

{وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ} [الطور: 4].

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة «ثم رفع بي إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم. كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور لأنه باني الكعبة الأرضية والجزاء من جنس العمل وهو بحيال الكعبة وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يُقال له بيت العزة، والله أعلم.

ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال «فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خرّ لخرّ عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم» والله أعلم. (المعنى أنهم لا يدخلونه مرة ثانية حتى ينتهي كل الملائكة من الطواف فيه).

المديح والتفاخر عادة سيئة

كثيراً ما نمدح أنفسنا ونتمادى في ذكر صنائعنا وأفعالنا وشهاداتنا وإحساننا إلى غيرنا، دون أن ننتبه أو نبالي بأننا قد منّنا على من أعطينا فأضعنا الأجر والثواب، ثم تباهينا بما تعلمنا أمام من لم يكن له نصيب من العلم، فخدشنا شعوره وأذللناه بجهله فضيعنا أجرنا في تعلم العلم بالتباهي بدل التواضع؛ والسبب أننا لم نتعلم أن مدح النفس والتفاخر بما رزقها الله هو خلق مذموم ولأن الكثيرين منا لم يتدربوا على تركه منذ الصغر. لذلك أحببت أن أتحدث عن هذا الخطأ الذي يقع به الكثيرون. تحدث الله عَزّ وَجلّ عن هذا المديح والتزكية للنفس وللغير ليعلمنا ما ينقصنا من حسن الخُلُق فقال: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً}** [النساء: 49].

قيل نزلت في ذم التمادح والتزكية. وجاء في صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب.

كما ذكر في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك»، ثم قال: «إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحداً».

هكذا علمنا الرسول الكريم كيف نتحدث إذا أردنا مدح أحد بأن نقول ما نرى من الشخص من محاسن وننهي كلامنا بقولنا: والله أعلم لا نزكي على الله أحداً.

أما عن مدح أحدنا نفسه، فقد قال الإمام أحمد: قال عمر بن الخطاب: إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه، فمن قال إنه مؤمن فهو كافر، ومن قال إنه عالم فهو جاهل ومن قال إنه

في الجنة فهو في النار.

ولأننا لا ندري بخفايا نوايا الناس منعنا الله عَزّ وَجلّ من الخوض في محاسن أفعالهم أو حتى في ذم سيئها. فقد تبدو لنا أفعال الناس حسنة وتكون نواياهم قد خالطها الرياء أو السوء وقد تبدو أعمالهم سيئة وتكون نواياهم طيبة وطاهرة.. ولأننا عاجزون عن معرفة النوايا في حين أن الله علمها لهذا قال تعالى {... **بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ...}** أي المرجع في ذلك إلى الله عَزّ وَجلّ «لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها ثم قال تعالى: **{... وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً}** أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل قال ابن عباس الفتيل. هو ما يكون في شق نواة التمر.

لكننا نجد الكثيرين يمدحون أنفسهم حتى يمل السامع حديثهم.. وآخرين يمدحون أصدقاءهم أو رؤساءهم أو يمدحون ليتقربوا إلى ممدوحيهم فينالوا ثقتهم وحبهم وعطاءهم أو حاجاتهم منهم ولا يدركون أنهم بذلك يخسرون دينهم وينالون سخط الله عليهم وغضبه. قال عبدالله بن مسعود: إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء، يلقى الرجل ليس يملك له ضراً ولا نفعاً فيقول له: إنك والله كيت وكيت فلعله أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشيء وقد أسخط الله ثم قرأ **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ...}**؛ وقد نهى الله عَزّ وَجلّ عن التمادح مرة أخرى في قوله تعالى: {... **فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}** [النجم: 32].

هذا ما نهانا الله عنه فهل نحن منتهون؟

ماذا نريد؟

عندما أراد زكريا عليه السّلام ولداً لم يفكر أن يتزوج زوجة أخرى شابة تنجب له ولداً!! مع أن هذا هو شيء منطقي ويمكن أن يفعله دون مشقة!

لكنه طلب من الله ولداً من زوجته فرزقه الله به بالرغم من كونها عجوزاً ورغم عقمها وكبر سنه!! **{يَازَكَرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} * {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}** [مريم: 7–8].

فالموضوع دائماً في ما نريد وما نسعى للحصول عليه وننفق عمرنا ووقتنا وطاقتنا لتحقيقه، وهل ما نريده ممكن أم أنه مستحيل؟ هل نحن مستعدون أن ندوس على من حولنا كي نصل إلى غايتنا أم أننا نقيد أمانينا بمبادئ تسمو بنا بدل أن نصنع من هؤلاء الأشخاص عراقيل تقف بيننا وبين سعادتنا وأحلامنا، من يريد الدنيا وزينتها يوفقه الله إلى ما يشتهي منها ومن يريد التزام طريق الحق مهما كلف الأمر فله الأجر والثواب يحصل عليه في الدنيا على شكل تحقيق لكل الأمنيات حتى وإن ظن أن تحقيقها مستحيل منطقياً، ثم بعد ذلك يحصل أجر من نوع آخر وفي عالم آخر سينتقل إليه بعد انتهاء أجله **{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}** [القصص: 79].

الله تبارك وتعالى يحرص أن نرى بوضوح كل عمل وجزاءه. يوضح لنا الخير والشر وعواقب كل منهما، ثم يترك لنا حرية الاختيار وبعد أن نختار طريقنا، يلزمنا وحدنا بتحمل نتائج اختياراتنا ودفع ثمن أخطائنا، **{تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا**

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} * {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [القصص: 83-84].

لذلك يجب أن يضع كل إنسان هدفاً سامياً ومفيداً لحياته دون أن يجعل العلو في الأرض غايته لأنه يعين على الفساد، وأن يجعل غايته دائماً هي الإصلاح في الأرض مع التواضع مهما علا شأنه، فالله عَزّ وَجلّ لا يحتاج إلينا كي نؤمن به، بل نحن من يحتاج إلى هذا الإيمان لنقوى بوجود الله بقلوبنا على مصاعب الحياة.

نحن نحتاجه بقربنا ليرشدنا إلى الصواب في حياة مليئة بالخيارات الصعبة والمحيرة فننتظر منه إشارة تتلقاها قلوبنا تدلنا على أسلم الطرق كي لا تتيه بنا الخطى وتودي بنا إلى جحيم الدنيا وعذاباتها ثم جحيم الآخرة الأبدي.

إلى كل من فقد غالياً

عندما تصيب الإنسان مصيبة الموت، ويفقد إنساناً عزيزاً على قلبه، فإن أول ما يفكر فيه هو سبب وفاته؛ ويبدأ بإلقاء اللوم على أحداث وأشخاص وأشياء يظنها تسببت بوفاته.. وتجتاحه نوبات متكررة من الغضب المجنون.. وهذا كله خطأ ووهم يدخله في دوامة من الكره والغضب حتى يعجز عن الخروج منها.

لكن الحقيقة التي شرحها لنا الله عَزّ وَجلّ في الكثير من الآيات هي أن أجل الإنسان عندما ينتهي سوف يأتيه أينما كان سواء في فرح أو حزن. لا يهم إن كان غاضباً أو راضياً. بغض النظر عن سبب الوفاة إن كان حادثاً أو قذيفة أو طعنة أو رصاصة. فهو سيموت حتماً في اللحظة نفسها بأي سبب لأن أيامه في هذه الدنيا انتهت، وأجله قد حان. أما قول الحمد لله عند نزول المصائب فهو قمة الصبر وذروة الرضا بقضاء لله وقدره لذلك ختم الله عز وجل آية الموت بالجزاء الحسن لمن شكر الله على ما أصابه **{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}** [آل عمران: 145].

والخطأ الذي يوقع الشيطان به الناس هو إيهامهم بأنه لو لم يحدث ما حدث لبقي ذاك الإنسان العزيز على قيد الحياة ولما خسروا وجوده بينهم. وهذا خطأ جسيم يصيب إيمانهم بالعمق ويخربه، لأن الإيمان بالقدر خيره وشره هو ركن أساسي من أركان الإيمان بالله. والأجل هو قدر مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ ويقدره الله عَزّ وَجلّ للإنسان يوم يكون علقة في رحم أمه.

ولكن هذه الطريقة التي يفكر بها بعض الناس بإلقاء اللوم على أشخاص أو أحداث رافقت الوفاة إنما هو من سوء الظن بالله وفيها اعتراض ضمني على قدره وعدم تقبل لهذا القدر. وإنما

جعل الله وقوع مثل هذه المصائب اختباراً لإيماننا ليمحص الله قلوب المؤمنين ويكشف ما في صدورهم من قوة إيمان وتسليم لله وقضائه وقدره، أو كره وسخط وضعف في إيمانهم.

وهنا.. وفي موقف كهذا لا يهم إن كنا ممن يؤدون فرائض الله من صلاة وحج وصيام ولا عدد ركعاتنا التي نصليها! إنما هي حقيقة تتعلق برد فعلنا في لحظة نزول المصيبة، فالصبر يكون في تلك اللحظة بالذات.. لأن ما نقوله ونفعله عندها ناتج عن قوة إيماننا بالله.. وتلك الحقيقة المختبئة في صدورنا وقلوبنا تتكشّف عند نزول المصائب. اللهم ثبّتنا.

{ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران: 154].

لذلك حذرنا الله عَزّ وَجلّ من التفكير بالموت عند نزوله بالطريقة الخاطئة التي يفكر بها من كفر بالله ولم يؤمن بقدره. وذلك كي لا تسيطر الحسرة على من فقدنا على عقولنا وتسلبنا أجرنا في مصيبتنا وتترك قلوبنا تصدأ بمرارة الفقد وتتعثر على دروب الإيمان وتتام بين هواجس شيطانية تحمل الأشخاص والأحداث عبء ذلك الفقد ووزره وتنشر السواد والكره والحقد في القلوب.

قال تعالى في وصف من يتصرف بتلك الطريقة فيتحسّر على من سافر ومات في سفره أو حارب وقُتل بأنه لو لم يذهب لبقي على قيد الحياة. لكن الموت لا يتعلق بما كنا نفعله قبل نزوله بنا إنما هو قدر من الله منفصل عما كان يحدث قبله.

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [آل عمران: 156].

فمصيبة الموت هي اختبار صاعق وقوي لنا من الله عَزّ وَجلّ، خصوصاً عندما يموت الكثير من الأبرياء وتكثر المصائب، فلا بد أن ننظر بنور من الله إلى تلك الأحداث والمصائب. والقرآن يتحدث عن تلك المصائب بطريقة إيجابية رائعة في معانيها. فعندما تعلم أن شخصاً تحبه

قد وافاه الأجل، تفكر في أن تكون نهايته بأكثر مواطن الأجر والثواب عند الله.. هكذا يواسي الله عَزّ وَجلّ من مات أحباؤهم بأنه أراد أن يرزق بعضهم الشهادة؛ فأيام المصائب تلك تدور بين الناس في كل الأماكن والأزمان، ولكن الله يصطفي من الناس شهداء ويجعل حتى موتهم فيه أجر.

{إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: 140].

فالطريقة التي نتقبل بها هذه المصائب وردود أفعالنا هي التي تكسبنا الأجر والثواب، أو تحرمنا منه وترمي بنا في سراديب الحسرة وتطرد الصبر والرضا بقضاء الله وقدره من قلوبنا **{وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}** [آل عمران: 141]. أم هل يظن الناس بأن قيامهم بفرائض الله من صلاة وحج وصيام وزكاة وصدقة ينهي المسألة ويجعلهم من أهل الجنة؟

لا يكفي قيامنا بالفرائض كي ندخل الجنة، فالنوايا التي لا يعلم بها إلا الله هي ما يجعل هذه الفرائض مقبولة عند الله. ولا بد من اختبارات ومصائب نمر بها فتظهر حقيقة إيماننا وهل نحن جديرون بدخول الجنة أم لا!

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 142].

{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: 2].

والفتنة هي الاختبار من الله عَزّ وَجلّ.. **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** [التوبة: 16].

أي أن تكون النية في كل عمل لله لا يخالطها شيء آخر.

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214].

إذا كان الله عَزّ وَجلّ قد ابتلى الرسول والصحابة وثبتوا فهل نظن بأننا لن نُبتلى؟ كل ما يصيبنا في هذه الحياة هو اختبارات متنوعة لتظهر إيماننا.

هذه دعوة لكل إنسان فقد شخصاً عزيزاً على قلبه أن يتعوّذ من الشيطان ويحتسب من فقد عند الله ولا يفتح باباً للشيطان ليعبث بقلبه ويهز إيمانه ويسجنه في ظلام الحسرة على من فقد. فهو قد رحل إلى عالم آخر سنلحقه إليه من كل بد، والموت قدر من الله واختبار شديد لنا كي نستفيق من غفلتنا، ونغتنم فرصة بقائنا في الحياة لنصلح ما في قلوبنا وما بيننا، ونحسن الظن بالله وعباده قبل أن ينتهي بنا الوقت وينادينا الرحيل.

هل تحب الله أم تدَّعي حبه؟

عندما تحب شخصاً فإنك تعطيه جزءاً كبيراً من تفكيرك ووقتك ومشاعرك واهتمامك، وعندما تتزوج الفتاة من شاب تحبه تجعله محور حياتها وتفعل كل ما يحب، وتنفق وقتها ومالها وجهدها كي تسعده وتتزين له لأنه يحب أن يراها جميلة وتكون مستعدة لانفاق عمرها كله لأجله!

والرجل عندما يحب زوجته وعائلته يقدم لهم ثمرة جهده وعمله وعمره وماله ليؤمن لهم كل ما يحتاجون إليه.. هذا أيضاً حب.

وعندما نقول إننا نحب الله ونقف بين يديه خمس دقائق في أداء الصلاة بينما نمضي ساعتين لمشاهدة فيلم وثلاث ساعات على الفيس بوك وساعات نتجول في الأسواق وفي الزيارات والمحادثات مع أحبابنا، عندها لا أظن أننا أحببناه حقاً!! نحن فقط نقوم بما فرض علينا ونحن في الحقيقة نعبده. أما عندما نحبه فسيكون الوضع مختلفاً لأننا سنقف ساعتين بين يديه في الصلاة ونتحسر على الأوقات التي ننشغل بمشاغل الحياة وواجباتها لأنها تبعدنا عنه.

لا يعني ذلك أن نترك كل شيء وننفق كل الوقت في الصلاة والعبادة دون اهتمام بواجباتنا وأعمالنا فالعبادة وحدها هي مهمة الملائكة التي خلقت لتعبد الله دون أن تملك الخيار لشيء آخر تفعله **{فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ}** [فصلت: 38].

أما البشر فقد جعل الله لهم خيارات كثيرة فيها الخير وأخرى فيها الشر وأعطاهم القدرة على الاختيار بين أن يعبدوه ويتخذوه صاحبا أو ينشغلوا بأشياء تسليهم وتسعدهم أو تشقيهم أكثر. لذلك فالذي يختار منهم صحبة الله وعبادته ويفضلها على متع أخرى مسلية يكون له الثواب عند الله اكبر من ثواب الملائكة، والله عَزّ وَجلّ لم يفرض علينا أن نتجرد من كل متع الدنيا ونتفرغ لعبادته، لأنه

خلقنا وهو أعلم بتكويننا وقدراتنا أكثر منا، بل على العكس لقد أمرنا أن نسعى في مناكب الأرض وأن نعمل ونتعلم ونستمتع بالحياة بكل أشكالها، فقد أمرنا أن نأكل مما رزقنا حلالاً طيباً ونتزوج وننجب أولاداً، وسخّر لنا كل ما في الأرض ليساعدنا، وأعطانا الأجر في كل ما نعمل في حياتنا، حتى العمل والعلم لنا بهما أجر كأجر الجهاد في سبيل الله.

لكن الله علمنا كيف نستمتع بالحياة بطريقة صحيحة ووضع لنا قوانين لنلتزم بها كي لا نؤذي أنفسنا ومن حولنا، كقانون الزواج الذي تترتب عليه التزامات مادية ومعنوية وجسدية وبالمقابل يستطيع الزوجان من خلال هذه العلاقة التمتع وإرضاء رغباتهما بطريقة صحيحة وصحية ولهما الأجر في ذلك لأنهما اختارا إشباع رغباتهما في إطار حلال وليس في الحرام ولأن إرضاء الرغبات خارج هذا الاطار يترتب عليه مضار صحية ونفسية تنعكس على الفرد والمجتمع. ويترتب عليه عقاب من الله.

فإن راقبنا سلوكنا في هذه الحياة والتزمنا بهذه القوانين واستشعرنا وجود الله معنا وتتبعنا ما علّمنا من حسن الخُلُق وآداب وأصول وقوانين وضعها الله بحكمته وعلمه، تنظم علاقتنا بخالقنا وبمن حولنا وبأنفسنا أيضاً، عندها نكون عباداً صالحين، نستحق أن يكافئنا في الدنيا والآخرة على طاعتنا له والتزامنا بما أمرنا، وهذا جزاء الطاعة والعبادة.

أما محبة الله فلها معنى مختلف وأجر مختلف تماماً.

فقد جعل الله تبارك وتعالى لمحبيه مكانة أقرب إليه، وكرامات أكبر، وجعلهم من المقربين إليه، وقد أخبرنا في كتابه العزيز مثالاً رائعاً عن إنسان أحب الله حباً عظيماً كافأه الله عليه في الدنيا قبل الآخرة بأن أعطاه ملكاً عظيماً لم يعطِه لأي بشر قبله ولا بعده، إنه نبي الله سليمان عليه السّلام، فقد بلغ حب سليمان لربه مبلغاً عظيماً في نفسه، ووصفه الله تعالى بأنه أوّاب أي كثير الطاعة العبادة والإنابة والتقرب من الله، فكان يحب ويكثر من تواصله مع ربه وعبادته له، «بالطريقة المتبعة آنذاك ويقال إنه كانت له صلاتان واحدة في النهار قبل غروب الشمس وأخرى في الليل»، وفي أحد الأيام عُرض عليه عشرون ألفاً من الخيول السريعة فأحبها وانشغل بها عن ذكر ربه في صلاة النهار حتى غربت الشمس ولما انتبه سليمان عليه السّلام إلى غروب الشمس وأدرك أن الصلاة فاتته أمر بجلب تلك الخيول الجميلة وقتلها كلها حتى لا تلهيه عن عبادة ربه! ولهذا لما تخلى عنها في سبيل حب الله تعالى عوضه الله عَزّ وَجلّ ما هو خير منها وهو الريح

التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر فهذا أسرع وخير من الخيل. وقيل عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال لنا البدوي: أخذ بيدي رسول الله فجعل يعلمني مما علمه الله عَزّ وَجلّ وقال «إنك لا تدع شيئا اتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله عَزّ وَجلّ خيراً منه».

هكذا أحب سليمان ربه وهكذا كانت مكافأته **{وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}** [ص: 30]، **{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}** * **{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ}** * **{وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ}** * **{وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ}** * **{هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}** [ص: 35-39]. فمن يخلص في حبه لله وعبادته يعظم الله له أجره.

ولما مات نبي الله داود عليه السّلام أوحى الله تبارك وتعالى إلى ابنه سليمان عليه السّلام أن سلني حاجتك قال: أسألك أن تجعل لي قلباً يخشاك كما كان قلب أبي وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي فقال الله عَزّ وَجلّ: أرسلت إلى عبدي وسألته حاجته فكانت حاجته أن أجعل قلبه يخشاني وأن أجعل قلبه يحبني، لأهبن له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

فاستجاب الله لسليمان وجعله ملكاً على كل كائناته وخلقه من الإنس والجن والشياطين والطير والوحوش والهوام أي الحشرات ولكي يستطيع أن يحكمها لا بد أن يفهم لغة كل منهم، وليس هذا كل شيء بل سخر الله له الجبال والرياح يخاطبها ويأمرها فتحمله حيث يشاء.. هكذا الله يعطي أحبابه عطاء رب قدير وكريم.

فأن نحب الله يعني أن نتقرب إليه بأشياء ليست مفروضة علينا وأن نقوم بها بالطريقة التي يحبها هو، وأن نفضّل صحبته على صحبة كل خلقه، وأن نقدم ما يحب على كل ما نحب وأن يجعلنا حبنا له نفكّر في رضاه قبل أن نفكر في إرضاء أنفسنا ورغباتنا وأهوائنا، وأن نقدم له وفي سبيله كل غال من نفس ومال وولد، هكذا يكون حب الله فهل من محب!!

جاء في الحديث القدسي: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» رواه البخاري.

وهذا التقرب يدرك العبد كيفيته بالاطلاع على أوامر الله ونواهيه، فينفذ الأمر ويتجنب النهي، ويترك المكروه، كما يفعل المحبوب، جاء في الحديث القدسي «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه».

وقال عَزّ وَجلّ في تتمة هذا الحديث القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» رواه البخاري.

وقد عدّد القرآن الكريم الخصال التي تقرب المؤمنين إلى الله وتجعلهم يفوزون بحبه، فورد في كتابه الكريم أنه سبحانه وتعالى يحب التوّابين ويحب المتطهّرين، ويحب المتقين، ويحب الصابرين ويحب المتوكلين، ويحب المقسطين، ويحب المحسنين.

باختصار بعض الناس يفضلون أن يحبوا أشخاصاً من خلق الله كما يحبون الله لكن الذين آمنوا يمكنهم أن يبلغوا بحب الله درجات أعلى وأكبر من هؤلاء، فالإيمان هو صفة المحبين لله **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...}** [البقرة: 165]. وبعد أن نسعى إلى حب الله ونتقرب إليه حتى يحبنا الله فماذا يعطينا؟ يعطينا الكثير وأكثر مما تمنينا بكثير لأنه رب محب كريم، بداية ستطيب أنفسنا بما أعطاها وترضى وتقنع، وبالمقابل سيرضى الله عنها والسر في خشية الله لأنها مرتبطة بحب الله ارتباطاً وثيقاً. **{... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}** [البينة: 8].

وسيلقي علينا محبة منه فيحبنا عباده، ثم سيخرج حب الدنيا من قلوبنا فتأتينا راغمة بكل ما فيها. عندها يتوقف الألم ويختفي الحزن من قلوبنا وتصفو نفوسنا من كل حقد وغضب ونسامح من أساء لنا وسيخرج الحقد والكره من قلوبنا فنشعر بسعادة لا يدرك سرها من حولنا إنما هو الله وحده يعلم سرها.

وعندما نشغل أنفسنا بحبه أكثر من حب خلقه نكون قد أدركنا أن حبه يبقى وكل خلقه راحلون، فلا تفجعنا المصائب. وعندما نحبه بيقين نكون قد تعلمنا أننا لو أحببنا غيره قد يخذلنا أو يخوننا أو يؤلمنا لكن الله لا يفعل ذلك، عندها سنعطي لكل إنسان ما يستحق من الحب والاهتمام والوقت ولن نفرط بالتعلق بأشخاص لا يستحقون هذا الحب الكبير. وعندما تمتلئ قلوبنا بحب الله سيخرج حب الدنيا ومتاعها من قلوبنا فيتوقف جرينا المجنون خلفها وخلف متعها الزائلة وستمتلئ

أوقاتنا بأشياء مفيدة وسنبتعد تدريجيا عن التفاهات والسخافات، وعندما نستشعر وجود الله معنا سننسى انتقاد الناس لأننا مشغولون بإصلاح أخطائنا الكثيرة.

وعندما نحبه سنحاول أن نجعل من أنفسنا أجمل كي يحبنا ويرضى عنا عندما ينظر إلينا، والجمال عند الله في طهارة القلب من الحقد والغل والغرور والكبر والكذب والرياء والحسد والغيبة والنميمة والسخرية من عباد الله ومن الظلم، وريثما نطهر قلوبنا منهم سننفق الكثير من أحزاننا وسنجد الحلول لكثير من المشاكل وستمتلئ قلوبنا بالسلام والمسامحة لكل من أساء إلينا أو أخطأ بحقنا ولن نفكر في امتلاك قلوب لا يملكها إلا خالقها.

الطريق إلى حب الله صعب وطويل ويتطلب الكثير من مجاهدة النفس أعاننا الله على بلوغ حبه. وكثيرون منا يعتقدون أنهم يحبون الله ولكنهم في الحقيقة يعبدونه فقط، فهل يملكون أدلة على هذا الحب؟

فالله عَزّ وَجلّ كلما ذكر الإيمان أرفقه بالعمل بموجبه، فكلما ذكر الذين آمنوا قال بعدها: وعملوا الصالحات، لأننا حتى في الحب لا يكفي الكلام إذا لم يتبعه عمل يثبته أو ينفيه. ولحب الله علامات فليبحث كل منا عنها في نفسه ولنسأل أنفسنا ولنجبْ بصدق هل يسعدنا أكثر وقوفنا بين يديه في جوف الليل أم صحبة أحد من عباده؟ أم سرير دافئ في ليلة باردة؟ هل نغضب إن فاتتنا صلاة؟ أم هل نشعر بالحزن إن فاتنا عمل صالح نتقرب به إلى الله؟ هل نفضّل أن نشتري بمال قليل رزقنا الله به حاجتنا أم نفضل أن نقضي به حاجة إنسان معسر لننال الأجر؟ هل نهتم لرضاه أكثر أم لرضا أنفسنا أو من نحب أو من نخشى؟

هل نستطيع أن نتخلى عن الرد على من أهاننا لنكون من كاظمي الغيظ والمحسنين الذين يحبهم الله لأنهم يحسنون حتى لمن أساء إليهم؟ أم أن كلماتنا التي تقطع كالسيف تسبقنا إلى قلب من أخطأ بحقنا؟ هل نتعطش للانتقام من أعدائنا ونتحين الفرص للانقضاض عليهم وفضحهم وإهانتهم؟ أم أننا لا نثق بانتقام الله ونفضّل أن ننتقم لأنفسنا؟

قبل أن نتسرع وندعي أننا نحب الله، ونهين من يدعونا إلى حبه أكثر، لنسأل أنفسنا، هل نحب أن ننفق عمرنا وجهدنا ومالنا ووقتنا معه وفي ما يحب؟ ونتحين الوقت لنتواصل معه بأي شكل بصلاة أو صدقة أو ذكر أو عمل صالح؟

عندما نجيب على هذه الأسئلة بصدق سنعرف هل نحن نحب الله حقاً وكم مقدار هذا الحب.

وفي الختام أنهى الله المسألة بمقارنة واضحة تنهي الموضوع، فالجهاد قد يكون جهاد النفس للقيام بالطاعات وليس جهاد الحرب فقط كمعنى أشمل هكذا يكون حب الله متفوقاً على حبنا لكل من حولنا وما ملكنا، هكذا يكون حب الله عَزّ وَجلّ: **{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}** [التوبة: 24] اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك وحب ما يقربنا إلى حبك.

التاريخ يعيد نفسه

من قال إن القرآن كتاب عتيق وقديم ولم يعد يتماشى مع زماننا وما يحصل معنا الآن؟ أقول لهؤلاء انظروا إلى هذه الآيات وكأنها تتحدث عما يحدث الآن في زماننا وفي بعض بلداننا، تصفه بدقة مذهلة وكأن التاريخ يعيد نفسه والاختبارات والمحن تتشابه وبكل تفاصيلها. في سورة الأنفال تجد في كل آية منها تفصيلاً مختلفاً لهذه المصائب والأسباب التي أوصلت الناس إليها، ووصفاً دقيقاً لكل فئة من الناس وطريقة تفكيرهم وردود أفعالهم وهو وصف رائع ودقيق. يقول تعالى: **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}** * **{إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}** * **{هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا}** [الأحزاب: 9-11].

فكلما اشتد الخطب وازداد الخوف وبلغت القلوب الحناجر وظننتم بالله الظنون، ابتليتم وتألمتم وزلزلتم زلزالاً شديداً. وفي خضم هذا الابتلاء ستظهر حقيقة إيمان كل منكم، وعندها سيظهر النفاق المختبئ في قلوب المنافقين. وسيتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم من شروخ كبيرة في ثقتهم بالله عَزّ وَجلّ وحكمته في حصول هذا الخوف والشدة. أما المنافق فستُظهر هذه المحنة والخوف حقيقة نفاقه، وأما الذي في قلبه شبهة فسوف يتحدث بما يحدثه به الوسواس في نفسه وبسبب ضعف إيمانه، ولن يستطيع إسكات هذه الوساوس وسيبوح من شدة ما هو فيه من ضيق الحال وخوف بكل الأفكار الخبيثة الساكنة في نفسه. **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا}** [الأحزاب: 12]. أي أن المنافقين يظنون أن وعد الله للمؤمنين بالنصر هو وعد كاذب ولن يتحقق. تماماً كما يقول بعض الناس عن الحروب الدائرة كيف يسمح

الله بحدوث هذا؟ ألا يرى الله الأولاد والنساء كيف تقتل؟ وأسئلة غبية على هذا النحو تكشف لنا مدى ضعف إيمانهم وقلة ثقتهم بالله، وكأن بعض الناس يدعون الإسلام فقط لكنه لم يلامس قلوبهم.

وأما وصف هؤلاء المنافقين فقد كان على درجة عالية من الدقة وهو وصف رائع، وكأن شدة الخوف تظهر ضعف إيمانهم وتجعلهم يرون ما يحدث بطريقة خاطئة فيصبح أكثر حديثهم ليس فيه خير، وكأن ألسنتهم سيف حاد يقطع القلب بحد كلماته، فهو لا يتكلم بخير ولا ينطق إلا بالشر. والسبب عدم وصول الإيمان إلى قلوبهم أصلاً، وعدم فهمهم لما يحدث من مشيئة الله. مثلهم مثل الذين ورثوا الإسلام من آبائهم ولم يفقهوا منه شيء. فحبط عملهم وضاع عليهم الأجر في الصبر على قضاء الله في محنة كهذه.

{أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [الأحزاب: 19].

بينما يكون موقف ذوي الإيمان الصادق بالله هو اليقين بالنصر لأن الله وعد المؤمنين به ولو كانوا أقل عدداً وعتاداً. فالنصر دائماً للحق، ومن التبس عليه الأمر ولم يعد يعلم من هو صاحب الحق بين الفرقاء المختصمين فلينتظر ليرى النصر فهو دائماً حليف المؤمنين الحقيقيين وليس المنافقين الذين يدّعون الإيمان.

هناك قاعدة وليست سنة ولا فلتة ولا مصادفة القاعدة تقول: إنه حيثما تنطلق عصبة مسلمة لإقرار ألوهية الله وحده في الأرض وإقامة منهجه والتزمت بشرعه ولم تحد عنه ثم وقف منها عدو لها موقف المشاقة لله ولرسوله كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة.. وكان الرعب والهزيمة للذين يعادونها. بشرط التزام العصبة المسلمة بحدود الله، وأن تكون الغاية هي إعلاء كلمة الله وليس المنصب والغنائم، وألا تكون بالقتل والنهب والاعتداء على الحرمات باسم الحرب أو الدين لتشويهه في النفوس والعقول. بل بالالتزام بقوانين الحرب التي وضعها الله ورسوله. بألا يحرقوا شجرة ولا يقتلوا امرأة أو طفلاً ولا يهتكوا الأعراض.. فشرط النصر للمسلمين هو اطمئنانهم إلى ربهم والتوكل عليه وحده والتزام شرعه ومنهجه والالتزام بطريقه كما فعل رسول الله ﷺ.

فالمؤمنون فقط يعلمون أن وعد الله ورسوله للمؤمنين بالنصر حقيقة وأن الله سيظهر الحق بلا شك، ولكن في الوقت الذي يقدره الله بعلمه، وبالطريقة التي يريدها الله وحده ويطمئن الله المؤمنين ويبشرهم بالنصر في قوله تعالى: **{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [آل عمران: 126].

ويثبت الله المؤمنين ويمدهم بملائكته وبجنود من عنده وكل ذلك كان بلاءً حسناً أي يزيد المؤمنين به إيماناً

{بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: 125] **{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا...}** [الأنفال: 12] **{... وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [الأنفال: 17].

ويحذر الله تبارك وتعالى المؤمنين من مغبة عدم استجابتهم لدعوات الله لهم على لسان رسوله بأنها ستودي بهم إلى مثل هذه المصائب والفتن؛ فالتنكر لأوامر الله وما نهى عنه، وتجاهل ما أمرنا الله به، وعدم الانصياع لأوامره يوصلنا إلى المحن والفتن كالفتن الحاصلة الآن في كثير من بلاد المسلمين.

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} * **{وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}** * **{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ}** [الأنفال: 20–22] ثم يحذرهم **{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** [الأنفال: 25] ثم يذكرهم بنعمه عليهم التي نسيوا أن يشكروه عليها وبدل الشكر قابلوه بالنكران والخيانة لأماناتهم.

{وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} * **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** [الأنفال: 26–27].

فالخيانة وعدم الشكر لنعم الله وعدم الطاعة لأوامر الله تقود بمجملها إلى غضب لله وسخطه، ليس ظلماً لهم.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...} [البقرة: 176] **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...}** [الأنفال: 53].

{... وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الأنفال: 51].

عن أبي سعيد رضي اللَّه عنْه قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر قال ﷺ: «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا».

وبعد ما دعوا بما أوصاهم الرسول الكريم به ضرب الله وجوه أعدائهم بالريح فهزموا أعداءهم بيقينهم وهزمهم الله بالريح! أي أن الله جعل نهاية هذه المحنة العظيمة والخوف والغم بأرق المخلوقات وألطفها وهي الريح لتكون العبرة للمؤمنين والمنافقين معاً ولتلمس قلوبهم عظمة الله وتتجلى في أعينهم قدرته على تفريج الهموم بأيسر الطرق بإذن الله.

لا تفزعوا أيها المؤمنون في كل زمان ومكان فإنما يختبر الله عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بأفعاله وأمر هذا بأفعاله. ومع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بنفاقهم وكفرهم ما يستحقون به عقاب الله لهم بما يعلمه فيهم. قال تعالى:

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: 31].

{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأنفال: 37].

أي ليجتمع أهل النفاق والضلال وليساندوا بعضهم بعضاً فيرمي بهم الله في جهنم فيكونوا في كومة واحدة بعضهم فوق بعض. فليكن لنا في رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قدوة في صبره ومصابرته عند الشدائد ولندعُ بما أمرنا به عند الشدائد «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا».

هل تلتقي أرواح الأحياء مع أرواح الأموات؟

الموتة الصغرى هي أن تغادر الروح الجسد أثناء النوم ثم تعود عند الاستيقاظ، مع بقاء النفس في الجسد لإبقاء عمل الوظائف الحيوية في الجسم تعمل بانتظام، فيبقى الإنسان على قيد الحياة إلى حين عودة الروح إليه والاستيقاظ من النوم. وعندما يسمع النائم صوتاً يستدعي الروح لتعود إلى الجسد فيصحو الإنسان.

أما الموتة الكبرى فهي عندما تغادر الروح والنفس الجسد دون رجعة ما يعني توقف الجسد عن التنفس وعن القيام بوظائفه الحيوية فالموت. وقد ذكر الله جل وعلا ذلك في آيتين في القرآن الكريم هما:

{اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: 42].

قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى أي الموت بما يرسل من الحفظة أي الملائكة الموكلين بقبض أرواح الناس الذين يقبضونها من الأبدان. أما في الموتة الصغرى عند المنام فتنفصل الروح جزئياً عن الجسد وتنطلق إلى عوالم أخرى لا يعلم بها إلا الله.

أما الآية الثانية فهي حيث قال تبارك وتعالى: **{وَهُوَ الَّذِي يَتَوفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** * **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}** [الأنعام: 60-61].

فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى وفي الآية الأخرى ذكر الكبرى ثم الصغرى.

ثم قال تبارك وتعالى: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً...}** [الزمر: 42].

فيه دلالة على أن أرواح الأموات تجتمع في الملأ الأعلى مع أرواح الأحياء أثناء النوم.

كما ورد بذلك الحديث في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنْه قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

أما عن كيفية التقاء أرواح الأحياء بأرواح الأموات في المنام فقد قال بعض السلف: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف في عالم البرزخ **{... فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ...}**.

أي الروح التي قد ماتت فيمسكها عنده ويرسل الأخرى من نام صاحبها فيتركها تعود إلى جسدها النائم إلى أجل مسمى إلى الوقت الذي قضى عليها الموت فيه أي إلى بقية عمرها. ومن يموت أثناء نومه تصعد الروح ولا يؤذن لها بالعودة إلى جسدها لأن أجلها قد حان. وقال ابن عباس رضي الله عنْهما يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط {... **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**} [الجاثية: 13].

فلو فكر الإنسان قبل أن يغمض عينيه أنه قد لا يفتحهما ثانية لما ترك شيئاً فيه أجر من الله إلا وفعله قبل أن ينام.

لقاء مع الموت

عندما تتعانق مع الموت وتلقي كل ما لديك من ذكريات خلفك وتجرك النهاية إلى عتبة الوداع الأخير وتظن أنه الفراق وأنك راحل، عندها تحس أنك تريد أن تعود، فكل ما فعلت في حياتك لا يكفي ليكون زادك بعد الرحيل وعندما يقرر القدر المكتوب بيد القدير أن مركبك لن يرحل الآن، سيبقى إلى أجل قريب. عندها يصبح كل يوم يمر عليك هبة رائعة تحتضن عمرك القصير، وتلون أيامك بألوان زاهية تضيء في عتم طريقك شمعة تمسح عن خدك دمعة، وتقرر انك ستترك الركض خلف أشياء الدنيا التافهة وسترتاح قليلاً وتعيد التفكير ريثما يحين الموعد الأخير. عندها ستتوقف قليلاً وتجول بناظريك في ذلك المكان حيث مشى بك الزمان واستوقفك الرحيل. ستفكر في تلك اللحظة ماذا سأحمل معي إلى مرقدي الأخير؟ هل هو شيء من أغراض الدنيا؟ لا لن أستطيع. أم حلماً كان مركوناً على رف المستحيل؟ ماذا سآخذ معي فالطريق طويل، هل أحمل ذكرى؟ أم منظراً جميلاً؟ ماذا سأضع في حقيبتي الصغيرة؟

لا يتسع المكان الصغير الذاهب إليه إلى شيء، لا كتاب ولا كلمة ولا حتى لحظة جميلة ولا صرخة ألم، لا يتسع ذلك المكان المعتم البارد الرهيب لشيء. إذاً ما الذي ينفعني هناك؟ لا شيء سوى آيات قليلة تضيء عتمة المكان تحمل قنديلها وتجلس بقربك تؤنس قلبك المرتجف في ذلك المكان الموحش الكئيب، تبقى معك حين يرحل الجميع، حين يتخلى عنك كل من أحبك وأحببت وكل من ذرف على غيابك الدموع ثم جفت دون أن تعرف طريقها إليك. تبقى تلك الآيات لتغطيك بغطاء من الجنة، تؤنسك وتقول لك: كما جفوت النوم في عتمة الليل لتقرأني وتركت اللهو ومتع الدنيا واخترت صحبتي. جئتك اليوم في عتمة القبر أؤنسك.

فلمَ نبخل على أنفسنا بأشياء يمكنها العبور معنا إلى القبر ونضيع عمرنا بأشياء لا يمكنها الرحيل معنا لأنها عالقة هنا في هذه الدنيا الجميلة فهي من متاعها وزينتها.

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: 14–15].

لماذا لم نعد نرى الأشياء المهمة؟ ربما لأن قلوبنا لم تعد تفقه جوهر الأشياء أو أننا لم نعد نفكر كثيراً في لحظة الرحيل، أو أن الأولويات لم تعد واضحة بل مشوشة بمشاغل الحياة ولهوها وزينتها وجمالها الذي سرق عمرنا حتى أصبحنا نهتم بالدنيا ونسينا الآخرة. لم نعد نفكر بما سيحصل معنا بعد الموت. لماذا تغيرت قيمة الأشياء في نظرنا؟

الجواب واضح وبسيط لأن إيماننا بها أصبح ضعيفاً ويقيننا مشوشاً، حتى أصبح مدفوناً تحت أكوام من اهتماماتنا بتوافه الأمور وبمشاكلنا اليومية وبلقمة العيش. ضعنا في إيقاع حياتنا السريع ولم يعد لدينا الوقت لنفكر قليلاً ونعمل أكثر لما بعد الرحيل. وأصبح الإيمان في زماننا شيء نادر وغريب. لم يعد رضا الله – الذي هو أغلى ما يكافئ الله به عباده المؤمنين – غايتنا. هذه هي المشكلة الحقيقية.

كان الموت يزورنا كل حين، يزرع في قلوبنا الحزن لسنين. ثم أصبح يقيم بيننا يأكل معنا من خبزنا، ويخطف الشباب من حولنا، ويقتل الأطفال وأهلهم، ويسرق سعادتهم وأحلامهم، ويترك لنا الحزن والألم، حتى أصبحنا نشعر بأننا عشنا دهراً ومتنا في كل حزن على من مات حولنا. ربما، يهزنا الموت بقوة كي يوقظنا من هذا السبات العميق الذي يستوطن عقولنا ويحتل لحظات عمرنا القليلة، ويكبلنا ويشدنا إلى توافه الحياة نضيع عليها ساعات عمرنا الغالية، ويبعدنا عما يفيدنا. فيجعلنا نخسر في كل لحظة نمضيها بعيداً عن عمل نتقرب به إلى الله. نخسر عمرنا ونضيعه على أشياء تافهة لا تنفعنا في رحلتنا القادمة.

{إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: 2].

وهنا يأتي الموت بضجيج حزنه ليلفتنا ويوقظنا وينبهنا من هذا السبات ويخبرنا أننا اقتربنا كثيراً منه، فلنتزود ولنحمل ملئ ما تستطيع قلوبنا أن تحمل قبل أن ينتهي العمر ولا يبقى في القلب إلا الفراغ.

ما دواء الوحدة في القبر

قرأت في كتاب يتحدث عن عالم البرزخ أن ما نقرؤه في صلاة قيام الليل ينفعنا بعد موتنا، وأنه ينجي من فتنة القبر التي هي سؤال الملكين، وأن العبد إذا مات وقف القرآن عند رأسه فإذا كُفّن دخل بين صدره وكفنه، فإذا أُدخل في قبره يقول له أتعرفني؟ فيقول العبد: لا، فيقول: أنا القرآن الذي كنت أسهرك فستجدني من بين الأخلاء خير صديق فأبشر. فيصعد القرآن إلى ربه تعالى فيسأل له فراشاً ودثاراً وقنديلاً من نور الجنة وياسميناً منها ثم يعود بها إلى قبر العبد ومعه الملائكة، فتفرش له الفرش تحته وتضجعه على شقه الأيمن، ثم تدثره بالدثار وتضع الياسمين عند ذقنه فيظل غضاً يستنشقه إلى يوم القيامة. وتضع القنديل عند رأسه ثم تدفع القرآن في قبلة القبر فيوسع عليه ما شاء الله من ذلك على قدر قراءته.

فأتمنى على كل مسلم ومسلمة أن يصلوا ولو ركعتين في الليل لتؤنس وحدتهم في قبورهم.

جعلنا الله وإياكم من المؤنسين بالقرآن في قبورنا، وأعاننا الله وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

من هو الرجل الذي أماته الله مئة عام؟

جاء في قوله تعالى: **{أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ولِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ}** [البقرة: 259].

اختلفوا في هذا المار من هو؟ فروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: هو عزير وهذا القول هو المشهور. وقال وهب: هو أرميا بن حلقيا. وقيل هو اسم الخضر عليه السّلام. وعن ابن أبي حاتم: يقول رجل من أهل الشام إن الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه حزقيل بن بوار، وقال مجاهد هو رجل من بني إسرائيل. وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها **{... وَهِيَ خَاوِيَةٌ...}** أي ليس فيها أحد. وقوله **{... عَلَى عُرُوشِهَا...}** أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها. فوقف متفكّراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال: **{... أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا...}** وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العودة إلى ما كانت عليه قال الله تعالى: **{... فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ...}** قال: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها. فلما بعثه الله عَزّ وَجلّ بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه فلما استقرّ سوياً قال الله له أي بواسطة الملك **{... كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ...}** وذلك أنه مات

أول النهار ثم بعثه الله في آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال: **{... بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ...}** وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء لا العصير استحال ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب نقص **{... وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ...}** أي كيف يحييه الله عَزّ وَجلّ وأنت تنظر **{... ولِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ...}** أي دليلاً على المعاد **{... وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا...}** أي نرفعها فيركب بعضها على بعض و{... **نُنْشِزُهَا...}** أي نحييها، قاله مجاهد، **{... ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا...}** وقال السدي: تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً فنظر إليها وهي تلوح من بياضها فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً وبعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار فنهق، كله بأذن الله عَزّ وَجلّ وذلك كله بمرأى من العزير فعند ذلك لما تبين له هذا كله {... **قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ**} أي أنا عالم بهذا وقد رأيته عياناً، فأنا أعلم أهل زماني بذلك. وقرأ آخرون قال أعلم على أنه أمر له بالعلم.

كذلك إذاً أذن الله لمدينة أن تعود بعد الخراب عامرة فستعود بإذن الله. فلا تحزنوا يا أهل المدائن التي تهدمت ستعود مدنكم أفضل مما كانت إن شاء الله.

خاتمة الكتاب

هذا الكتاب البسيط هو دعوة لكل مسلم إلى تعلم وفهم القرآن الكريم والبحث عن تفسير يحمل أكثر من المعاني اللفظية له لمحاولة فهم آياته بشكل صحيح كي لا يلجأ بشكل عفوي إلى فهم سريع وخاطف قد يأخذه إلى معانٍ بعيدة كل البعد عن المعنى الحقيقي للآيات. وفيه سلّطت الضوء على بعض الآيات التي استوقفتني وبعض المواقف التي يجدر بنا أن نفكر فيها أكثر، وحاولت ربط التفسير بما نعيشه فأسقطته على واقعنا وما نراه من بعضنا وأنفسنا من تصرفات بعيدة كل البعد عما علمنا إياه الله ورسوله في كتابه.

وبسبب تفاوت الناس بعلمهم وفهمهم لآيات القرآن وتفشي مفاهيم خاطئة بين عامة الناس عن بعض آيات القرآن الكريم ومعانيها، وبسبب عدم توفر الوقت أو الرغبة عند الكثيرين للبحث في كتب التفسير الكثيرة عن معنى آية في عصر سريع الخطى لا يملك أصحابه الصبر لقراءة عشرة أسطر. لذلك عملت على تقديم هذا الكتاب وفيه محاولة لتبسيط تفسير بعض الآيات وربطها بحياتنا لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة عن الإسلام والقرآن. بأسلوب سهل وبسيط بعيد عن التعقيد قريب إلى العقول فهمه، يخاطب كل شرائح المجتمع وخاصة من لم يتلقَّ منهم علوم الشريعة في أثناء دراستهم، ثم ربط مضمون هذه الآيات بعصرنا وحياتنا ليعيد بناء معرفتنا بديننا وعقائدنا فنعيد نحن بناء قناعاتنا على أساسه، ونعلم أنفسنا الأخلاق التي أمرنا الله بالتحلي بها فيذكرنا بما نسينا منها، ويشجع من يحفظ القرآن إلى تلمس بعض المعاني فيه علّها تكون زاده في الدنيا وذخره في الآخرة.

وأشكر الله الذي وفّقني بفضله لأذكّر نفسي وإياكم بكلام الله عَزّ وَجلّ وحقيقة الإسلام وخلقه وروحه وجوهره. وأتمنى أن يكون يداً تمتد إليكم لتذكركم بما علمتم وتخبركم بما لم تعلموا عنه.

راجية من الله أن يعيننا على تعلم ما جهلنا والعمل بما علمنا وأتمنى من الله القبول والتوفيق.